الموتى
يهمسون أحيانًا

الموتى يهمسون أحيانًا

محمد سعيد غازى

اسم الكتاب: الموتى يهمسون أحيانًا

المؤلف: محمد سعيد غازي

الناشر: المؤلف

رقم الإيداع القانوني: 2478/2022

الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-940-800-2

دولة النشر: جمهورية مصر العربية

سنة النشر: 2022

رقم الطبعة: الطبعة الأولى

تحذير//

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب إلا بموافقة خطية من الناشر والمؤلف.

الناشر//

المؤلف

موبايل: 01228200991

الموتى يهمسون أحيانًا

محمد سعيد غازي

روايــة

2022

الإهـداء:

إلى الذين ماتوا بعد أن جعلوا أعداءهم سعداء

محمد سعيد غازي

هذه الرواية خيالية، وأي شــخصية من الشخصيات هي مِنْ وحي الخيال، ولا تمُتُّ للواقع بأي صلة مباشــرة أو غير مباشــرة، ولا لأي طرف من الأطراف، وأي تشابُه في الأسماء أو الأشخاص هو وليد الصدفة.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

هناك أسئلة ســتكون باقية دومًا إلى الأبد كالجزء من تجربتنا الإنسانية، ماذا يحدث عندما نموت؟

وماذا يوجد هناك؟

وعلى مرِّ الســنين كانت تلك التساؤلات تشغل بالَ كُلِّ إنسان، خاصةً إذا كان عملك مع الأموات!

الفصل الأول

(1)

الخوف

كان يومًا عاديًّا مثل أي يوم في حياتي، ولم يظهر ما يجعلني أُفكِّر في أن ذلك اليوم سوف يتبدَّد كُلُّ شيء كنت أظنه ثابتًا.

لمــاذا تنظر إليه نظرة الخــوف هذه التي أعرفها جيدًا؟ أُقــدِّر خوفك يا هذا ولكن لم أكن هكذا مثل الشبح دومًا.

نعم.. نعم.

ستجادلني في هذا طبيعي، هذا هو أنت يا عزيزي، مجادل بطبعك، ولكن من العدل أن تسمع ما حدث، وحتى تعرف لا بُدَّ أن أحكي لك عن الخوف.

هذا القاتل الصامت الذي يتسرب إليك حتى يسيطر على كل أفكارك وأفعالك، ولا يتركك إلا جثة هامدة أو حُطامَ إنسانٍ، أو قابعًا في مستشفى أمراض عقلية.

الخوف -في رأيي- هو كل شيء تمتلكه ويمكن أن يُسْلَب منك.

انظــر، لقد كنت رجلًا مهندمًا وصاحب وجه جميل؛ فتلك العظام التي أحملها في وجهي وجسدي المريض لم تكن تظهر عندما كنت أمتلك الإرادة في التغيير، نعــم، أعترف لــك بأنها جعلتني بــلا إرادة، وأعترف لك بأننــي أحببتها أكثر مما تســتحق، لا أعرف هل الوجود معها هــو العذاب أو الفــراق والبُعد عنها وتركها

بعد كل هذه السنين هو نهاية العذاب؟! كثيرًا ما أسأل نفسي هذا السؤال: لماذا أحببتها؟ ولماذا أنا لا أزال معها ولم أتركها؟ فكان الجواب الكافي حتى أتركها أني لم أعُد أعرف سبب البقاء أو الاستمرار معها ومع أدوية الضغط والأعصاب. نعم، أعرف لقد كانت جميلة ورشيقة، وكانت بذكائها وثقافتها فاتنة الحي، ولقد تركت الجميع من أجلي، وكان هذا سببًا كافيًا حتى لا أتركها ولكن الآن بعد هذا الحادِث الأخير يا الله يجب عليَّ أن أعود إلى البيت؛ فقد اقترب أن ينتهي الليل.

هــذا الحديــث كان بين الدكتور عادل هلال ونفســه بعد أن خرج من البيت في حفــل عيد ميلاده الخامس والثلاثين، خمســة وثلاثون عامًــا هو عمره الذي عاشــه؛ فقد تزوج وهو في عمر الخامسة والعشرين من نجلاء بنت جاره في حي الزيتــون، عندما كان يعيش مع والده وإخوته، تزوج بعد أن عاش حياة الإنســان العاقل أيامًا، وحياة الإنسان المجنون في أيام أخرى, لقد كان أكبر إخوته وأكثرهم شــهرةً ومالًا، وزوجته نجلاء هي مِن أجمل نســاء الحي، وأجمل مِن زوجات كل أصدقائه. وكانت قصة حبها واختيارها له مِن بين كل رفاق الحي هي الحكاية التي كانــت حاضرة في كل تجمع أو مناســبة من جيران وأصدقــاء الحي، وكانت كُلَّما ســمعت نجلاء ذلك ترد مُبتســمة: ولو عاد الزمان ألف مرة سوف أختار عادل في الألف مرة وهو ينظر إليها، ولا يســتطيع أن يَرُدَّ بلســانه، ولكن كانت عيونُه هي التي تتكلم وتقول: إنه دونها لن يعيش ساعة في هذه الدنيا.

اقتــرب الدكتور عادل مــن الوصول إلى منزله في شــارع البحر الأعظم، وإذا بعجــوز تُمســك بيده وتصرخ عليه: أنــا أعرفك، أنا أعرفك! وقــف أمامها وهو لا يتمالك نفســه من الفزع، كانت المرأة بشــعة ورائحتها كريهة. أخرج منديلًا من

بنطلونــه ووضعه على أنفه ثــم نظر إلى العجوز وقال لها: مــاذا تريدين؟! أنا لا أعرفك.

قالت: ألم تكن مريضًا من فترة وكان الناس والأطباء يقولون إنك لن تعيش؟!

نظــر إليها نظرةَ اســتغرابٍ وقال: يــا لكِ من مجنونة! ابتعــدي عن طريقي.. ابتعــدي. ثم ذهــب وصرخات وضحــكات العجوز تطــارده وهي تصــرخ عليه: مِسْــكين.. مِسْــكين! حتى وصل إلى مدخل العمارة ثم ضغــط على زر المصعد، ولكن المصعد لم يتحرك، فخرج مناديًا على البواب: يا يوســف.. يا يوســف. فلم يــرد عليه. نظر إلى الســاعة وكان الوقت متأخرًا، فذهب للصعود على الســلالم ووضع قدمه على أول درج، وأخذ يعُدُّ الأدوار؛ واحد، اثنان، حتى وصل إلى الدور السابع، ووضع المفتاح في الباب ثم سمع صرخة تأتي من الدور الأسفل من شقة الأستاذ خليل، فنزل مسرعًا إلى الأسفل، فوجد حرم السيد خليل وابنته هدى على باب شــقتهما, يصرخان: خليل مات.. خليل مات! وقد اجتمع ســكان العمارة في الدور الذي به شــقة الأســتاذ خليل، ونظر عادل داخل الشقة فوجد نجلاء زوجته تقف بجوار هدى ابنة خليل.

كان النهار بدأ في البزوغ، وبالطبع لم ينَمْ أحدٌ مِن ســكان العمارة، وفتحت الشــقق أبوابها، وتجمــع الرجالُ في مدخل العمارة اســتعدادًا لإجراءات الجنازة، ولكــن الدكتور عادل دخل غرفته حتى يأخذ قســطًا مــن الراحة، وحاول الاتصال بالمستشــفى التي يعمل بهــا لكي يأخذ إجازة لكن لم يُجــبْ أحد على الهاتف، وسرعان ما ذهب في النوم.

كان صياح أول ديك قد صاح عندم اســتيقظ عادل من النوم، وبدأ سواد الليل

وعتمتــه تتبدَّد رُويدًا رويدًا، ووضع قدمه علــى الأرض، وأخذ ينادي على زوجته نجــلاء التي كانت في الغرفة المجــاورة ومعها أختها التي لا يتفاءل بوجودها في منزلــه، ووقف على باب الغرفة وهو يقــول: أعوذ بالله من غضب الله! ولكن لم يَرُدَّ عليه أحدٌ منهم، وأخذت زوجته وأختها الشنط، وذهبت إلى باب الشقة وهو يقــول: «إنتِ بتعملي إيــه يا نجلاء؟ أنا عارف إني كنت غلطــان لما تركت حفلة عيد الميلاد، لكن كنت حاســس بتعب، وعايز أكون مع نفسي شوية عادي.. على العموم أنا آسف يا ستي».

ولكن نجلاء لم تَرُدَّ عليه، وفتحت الباب وخرجت وهو يصرخ: لو خرجتِ من البيــت مش هترجعي تاني، إنتِ فاهمة؟! ولكنهــا خرجت ولم تعُدْ. عاد هو إلى غرفته وبدأ في تغيير ملابسه، واستعدَّ للخروج.

وفــي الحقيقة كان يحــب زوجته جدًّا؛ كان يكتب لها رســائل وهي معه في نفس الشــقة، كتب لها أكثر من رســالة عندما يحدث بينهما خصام، وكانت هي تقرأ هذه الرسائل بكل اهتمام ثم تضعها في صندوق خشب، ثم عندما تلقاهُ بعد ذلك كأنها لم تقرأ شــيئًا، وتتعامل معه وكأن شيئًا لم يكن، وشيئًا فشيئًا قد بلغت مــن ترويضه أن أصبح هو نفســه لا يجرؤ على أن يتكلــم أو يذكر ما حدث منها أمس. كان يختلس النظر إلى عينيها من الحين إلى الحين، لكنها كانت لا تنســى بينما هو كان ينسى كل ما حَدَث بينهما من مشاكل بسرعة كبيرة، لقد كان لا يرى مثلها في الوجود، لا يســتطيع أن ينظر إلى امرأة غيرها، عندما كان يمشــي معها في الطريق، وكانت النساء تأتي وتذهب أمامه، لا يحس بأي منهن، كانت هي في عينيه أجمل النساء؛ عندما كان يستمع إلى صوتها وهي تتحدث تجري في جسده

رعشة، وتلمس قلبه سعادة لا يمكن أن يقدر أو يستطيع أحد وصفها، وكان عندما ينهره أحدُ أصدقائه بسبب هذا الضعف أمام زوجته كان يضحك ويقول: وهل أنا أحسـن من نابليون الذي كان قويًّا أمام جنوده ويُحرِّك العالم بكلمة وتقف أمامه الملـوك احترامًا له وهو لا يملك أن يفتح عينيـه في عين زوجته، ولم يكن ذلك مـن ضعْف ولكن من شـدة حبه لها؟! وكان عندما ينظر إليهـا وتقع عيناه عليها يحمر وجهه خجلًا.

كانت السـاعة التاسعة صباحًا عندما فتح عادل باب الشقة لكي ينزل، ونفس مـا حدث مع المصعد فـي الليل حدث أيضًا في النهـار، وذهب لكي ينزل على السـلالم، وبدأ في عَدِّ الأدوار حتى نزل وخرج من مدخل العمارة ثم ركب سيارة صديقـه الدكتور محمود الـذي يعمل معه، وانطلقت السـيارة حتى وقفت بهما أمـام مبنى كبير يُخيِّم عليه الصمت، له بابان، أولهما يطل على شـارع رئيسـي، يعبـر منه الموظفون، ومُعلَّق عليه لوحة معدنيـة مكتوب عليها (مصلحة الطب الشرعي)، وسهم يشير إلى داخل المشرحة، والباب الآخر مُخصَّص لدخول وخروج الجثث من المشرحة، وهذا الباب مفتوح على شارع جانبي ضيق، وبمجرد المرور عبره تجد نفسـك أمام أبواب ذات لون أبيض، لكن بفعل الزمن أصبح غير واضح الألوان أو المعالم، وبمجرد الدخول من هذا الباب تكون في قلب المشـرحة، ثم يوجد ممر ضيـق، وعلى جانبي الممر تجد حُجرتيـن مفتوحتين بداخل بعضهما البعض، يجتمع فيهما الأحياء والأموات. في الحجرة الواحدة توجد عشر ثلاجات، تحتوي كل منها خمسـة أدراج، بواقع خمسـين جثة، وفي آخر هذا الممر توجد غرفة كبيرة من أجل تجميد الجثث التي لم يُسْـتَدَلّ على معرفة هوياتهم، ونظرًا

لأنهم سـيمكثون وقتًا طويلًا داخل المشـرحة، فيوضعون في هذه الغرفة حتى لا تتعفـن الجثث، وفي جانب الغرفتين سـلم ثلاث درجات إلى أسـفل، وبه غرفة صغيرة يوجد بداخلها دولاب به أكفان، في مقابله سرير صغير جدًّا، وبينهما توجد منضدة صغيرة عليها سـخَّان، وأوراق، وشـمع أحمر يُسـتخدم لتشميع أي حِرْز، والتحفظ على العينات التي تُؤخذ من الجثث بعد تشـريحها، بجوار هذه الغرفة يُوجـد غرفة صغيرة مُعلَّق عليها يافطة مـن النحاس مكتوب عليها (هنا البوفيه)، وبها أدوات إعداد الشـاي والقهوة التي يستخدمها العاملون ليعدوا بعض الشاي في أثناء عملهم، وأمام باب اسـتراحة الأطباء كرسـي يجلس عليه رجل كبير في السن اسمه (عم موسى)؛ رجل سمين وقصير القامة، لا ينطق بكلمة إلا ومعها آية من القرآن ثم يتبعها بكلمة: «ولا مؤاخذة!».

وصل عادل والدكتور محمود إلى غرفة التشريح، ونادى عادل على المساعد:

- يا خالد.. يا خالد.

- نعم يا دكتور عادل، تحت أمرك.

- أنت فين؟

- آسف يا دكتور، كنا بنظبط الدماغ بكوباية شاي.

- خلاص يا سـيدي، حضَّر شـغل النهارده، وأنت اجهز حتى أنهي حديثي مع الدكتور محمود.

- حاضر يا دكتور.

الدكتور محمود: خلاص يا دكتور عادل أنا أيضًا ذاهب إلى مكتبي.

- ونتقابل في المساء على كافيه الكابتن، تمام.

وصل خالد مَمَرَّ غرفة المشــرحة وهو يغني أغنيــة فايزة أحمد (يا امَّه القمر علــى الباب)، دخل من باب الغرفة وهو يحمل جثة نائمة على العربة التي يطلق عليها الترولِّي، فلما كشــف الغطاء إذا بشــابة في عمر الزهــور لا تتجاوز الثامنة والعشــرين، ومن الواضح أنها الأغنية التي كانت على لســان المســاعد لها، وكان يقصــد بكلمة القمر هذه الســيدة، أقصد الجثة أو الســيدة الميتة. وقد أُصيبت بنزيف شديد في الدماغ، وكسور متعددة في الأطراف.

نظر عادل إلى الجثة وهو في صدمة وذهول واضح، ثم قال له المساعد: إيه يا دكتور عادل مفيش وقت علشــان الجثة دي مطلوب الشــغل فيها بسرعة؛ لأن الدكتور علي درويش رئيس القسم نبّه على سرعة الانتهاء منها؛ لأن النزيف شديد وسيزداد خروج الدم لما تبرد الجثة. وخلِّ بالك دي مش خارجة من الثلاجة وأهلها ناس تقيلة أوي في البلد؛ يعني لازم تخرج النهارده. لكن يا خالد أنا حاســس إني أعرف الست دي وقابلتها قبل كده لكن مش عارف فين وإزاي؟

- خلاص يا دكتور عادل نشتغل وأنت افتكر على راحتك.

في تمام الساعة الثالثة وبعد الانتهاء من تشريح السيدة ذهبت إلى المغسلة حتى يســتلمها أهلها، وجلس عادل يحاول أن يتذكر من أين يعرف هذه الســيدة ولكن دون جدوى.

ومرت ساعة وهو جالس في مكانه حتى حضر المساعد ومعه سيجارة وكوب من الشــاي، واقترب منه وهمس في أذنه: بأقول إيه يا دكتور، مش ممكن يكون قابلت الست دي في سهرة من سهراتك وبعد كده نسيت؟!

نظر إليه نظرة غضب!

- خلاص يا دكتور، أنا كنت عايز أخدم.

ولم يرد وانصرف إلى غرفة تغيير الملابس.

وصل إلى شــارع البحر الأعظم، ووقف أسفل منزله يُفكر في أن يذهب إلى بيت أهل زوجته حتى يعود بها إلى المنزل، ولكن قرَّر تغيير ملابسه ثم بعد ذلك يذهب إليها.

ودخــل إلى العمارة مُتوجهًــا إلى المصعد، وضغط على رقم الدور الســابع، ولكــن أيضًا لم يتحرك المصعــد، هذه المرة خرج وهو يصرخ: أنت يا يوســف! أنت يا ابن الـ... وفجأة ظهرت سيدة من مدخل العمارة على وجهها نظارة شمس ســوداء وثوب أسود واقتربت من المصعد وهو ينظر إليها وهي أيضًا، ثم قطعت هذه النظرات وقالت: أنت الأستاذ عادل؟ قصدي الدكتور عادل؟

- أيوه، أنا الدكتور عادل، خير.. تحت أمرك.

رفعت يديها، وسحبت النظارة من على وجهها وكانت المفاجأة!

عندما ظهر وجه الســيدة، صرخ الدكتور عادل: هالة شــكري بنفسها قدامي، أكبر دكتورة نساء وتوليد!!

وهي تضحك: أكبر دكتورة في مصر!! أنت فاهم غلط خالص!!

- لا يا دكتورة، أنتِ من أحسن الدكاترة في مجال تخصُّصك وقُدوة حسنة لكل دُفعتك، ودي حقيقة مِن غير مُجاملة.

- خلاص يا سيدي، المهم أنا كنت عايزه أتكلم معاك في موضوع كده.

- موضــوع واحد؟ أنا تحت أمرك، اليوم كله، أنا كان نفســي أتعرف عليكِ من زمــان، وطلبت من الدكتور محمود يعرفني عليــكِ من فترة طويلة لكن الظروف

والنصيـــب. اتفضلي يا دكتورة، لكن أنا آســف المصعد عطــلان، والظاهر هنطلع على السلالم.

نظرت هالة بنظرة تصحبها ابتسامة خفيفة على وجهها: عادي، أنا جاهزة.

ووصلا إلى باب الشــقة، ووضع عــادل المفتاح وهو يقول: اتفضلي يا دكتورة هالة، البيت بيتك، ثواني وراجع تاني.

جلســت هالة في غرفة الجلوس وأخذت تنظر إلى جدران الشقة وإلى صورة نجلاء التي تُزيِّن غرفة الجلوس، ودخل عادل إلى غرفته، وبدأ في تغيير ملابســه، ثم أمســك الهاتف وطلب بيت أهل زوجته، لكن لم يُجبه أحد، ثم اتصل بهاتف صديقــه محمود، وعندما ســمع صوت محمــود صرخ: أنت فيــن؟! تعالَ عندي بســرعة، أنا عندي مفاجأة ليــك، مفاجأة كبيرة أوي وهتعجبــك صدقني، أنا في انتظارك يا سيدي، لما توصل هتعرف، سلام. وأغلق السماعة.

ثم عاد عادل إلى غرفة الجلوس وهو يبتســم في وجه الدكتورة هالة ويقول: أنتِ عارفة يا هالة أنك أول واحدة ست تدخل الشقة دي ونجلاء مش في البيت؟!

- هي دي صورتها؟

- أيوه يا ستي هي دي زوجتي.

ثم قاطعته: ومالك بتقولها كده؟ وفين هي صحيح؟

- يااااااا.. دي قصة يطول شــرحها، المهم إيه هو الموضوع المهم، والســبب في زيارتك وتشريفك ليَّ؟

- شوف يا دكتور عادل، باختصار شديد أنا راجعه من منزل أهل أعز أصدقائي مريم إبراهيم.

- الاســم دا أنا فاكر أني كتبت تقرير النهارده عن حالة بنفس الاســم (مريم إبراهيم).

- أيــوه يا دكتور عادل، هــي دي مريم إبراهيم أعز أصدقائي، أنا عايزه أعرف وضْع الحالة بالضبط، وإيه كان ســبب الوفاة، أنا عرفت من الدكتور محمود أنك أنتِ اللي شرَّحت الجثة؟!

- يــا دكتــورة، أنا عملت شــغلي، والتقرير فــي النيابة، وفيه صــورة منه في المصلحة.

- يا دكتور، ليس هذا ما أريد معرفته، أنا عايزه أعرف رأيك وإحساســك وأنت بتشرَّح الجثة؟

- أنا لم أفهم قصدك يا دكتورة!

-دكتــور عادل، مريم إبراهيم كانت دكتــورة وزميلتي من ابتدائي، وبصراحة أنا عندي إحساس رهيب أن مريم ماتت مقتولة، وحكاية أنها وقعت من البلكونة دي، أنــا غير مقتنعة بيها، مريم كان عندها مشــاكل كبيــرة مع أهل جوزها على الميــراث، وخصوصًا أخو جوزها مجدي، علشــان جوزها قبــل ما يموت كتب كل حاجة باسمها.

- مجدي مين؟

- دكتــورة هالة، أنا الصورة بصراحة غير واضحــة قدامي، حضرتك عايزه مني إيه بالضبط؟

- أنا عايزه أعرف صاحبتي ماتت إزاي؟

نظر إليها وهو يقوم من على الكرســي، وقال: دكتورة هالة، أنا دكتور تشريح

ومــش وكيل نيابة، حضرتك ممكن تقومي بعمل بــلاغ، والنيابة تُحقق في الوقعة وفي الكلام ده.

- نيابــة إيــه يا دكتور؟! أنت عارف أهل جوزها هما مين علشــان أتهم واحد فيهــم أو النيابة تحقــق مع واحد منهم؟! يــا دكتور عادل، ملفــات القضية كلها اتقفلت بسرعة رهيبة علشان تموت الحقيقة في النيابة والطب الشرعي.

- قصدك إيه يا دكتورة؟

- أنا آسفة يا دكتور.

-أنا لم أقصد أشخاصًا بعينهم، وأكيد لو عندي شك في حضرتك مش هاتكلم معاك في الموضوع، ونظرت إلى الأرض، ثم قالت في نبرة فيها توتُّر وعدم الثقة:

ممكن يا دكتور عادل اطَّلع على التقرير.

تحرك عادل ناحية باب الشقة وهو ينظر إليها وقال في نبرة فيها شيء من الحِدَّة:

شرفتِ يا دكتورة!

أســرعت هي إلى الخروج من الباب ثم قالت قبل أن تخرج: يا دكتور، مريم صاحبتي ماتت مقتولة ولم تنتحر زي ما حضرتك والنيابة قلتم!

نظر إليها ولم يُعلِّق ثم أغلق الباب.

ثم عاد وجلس على الكرســي ينتظر الدكتور محمود ونظره معلق على ساعة الحائط، وكان الوقت يمضي ببُطء شديد.

أصبحت الساعة الســابعة، ولم يحضر صديقه محمود. أمسك الهاتف وحاول أن يتصــل بــه مرة أخرى، ولكن لم يرُدَّ عليه أحد، فدخل وغيَّر ملابســه ونزل إلى

الشــارع، خرج من شارع البحر الأعظم قاصدًا النيل حتى يجلس في المكان الذي تعوَّد على أن يذهب إليه عندما كان يختلف مع زوجته نجلاء.

وأخــذ يُفكر في كلام الدكتورة هالة، ولكن الذي كان يشــغل تفكيره هو جثة (مريم) عندما نظر إليها في المشرحة، والشيء الذي لم يقُلْه للمساعد أنه عندما كشــف الغطاء عن وجهها وأحس أنه يعرف هذا الوجه من قبل ســمع همسًا عند أذنيــه يقول: «قتلني.. قتلني!». وفجأة شــعر بحركة خفيفة إلى جوارها، وســمع صوتا مألوفًا أشبه بصوت أحد يأتي عبر الهاتف. تجمَّد وتجمَّد معه الزمن نفسه.

وفي خارج مجال الرؤية شــاهد رجلًا جالسًا بجواره، كان الرجل عجوزًا أشيب مُلَوِّحًا بذراعيه وصدره، مغطى بلحيته الطويلة البيضاء وقد تجاوز سِــنُّه السبعين عامًــا، وبصوتٍ مرتفع قال: فرد صمد، وحِّــد الواحد! اقترب عادل من الرجل وهو يرتعش: أنت مين كمان؟! وهو اليوم ده ماله كده؟!

ابتسم الرجلُ العجوز ابتسامة الواثق من نفسه، وهمس في أذن عادل بشيء وقال: ما على الرسول إلا البلاغ، ثم وضَعَ يده على عصا كانت بجواره، وَرَحَلَ.

وعادل يقف وقد تسمَّرَت قدماهُ وهو ينظر إلى الأمام ثم إلى الخلف.

تحــرَّك عادل إلى طريق العــودة متجهًا إلى البيت وقد ســيطر عليه الخوف والرهبــة مما قال له العجــوز. كانت كلمات العجوز قليلة لكنها كانت مُرْعِبة. في الحقيقة كانت رســالة قصيرة من العالم الآخر، رســالة وفيها: «ابحث عن حقيقة موت مريم إبراهيم». قالها العجوز ثم اختفى.

أخذ يقول: لا بُدَّ أنه وســواس، ربما يكون حلمًا من أثر التعب. نعم، لا بُدَّ أنه كذلك! نعم، هو كذلك!

وَصَلَ إلى مدخل العمارة، وعندما وضع إحدى قدميه على أول الدَّرَج انقطعت الكهرباء عن الحي، وأصبح لا يرى شـيئًا، فأخرج الموبيل عسى أن يضيء له جزءًا مـن الطريق، وبدأ في الصعود على السُّـلم، وعندما بدأ فـي العَدِّ المعتاد أحس بأنفاس خلفه ووقْع أقدام، التفت إلى الخلف وهو يصرخ: مين؟ مين؟

ثم التفت مرة أخرى إلى الأمام عندما أمسـكت أيدي بشـرية أكتافه، عندها تسـارعت دقَّات قلبه وتسمَّر في مكانه وهو يرفع ضوء الموبيل أمامه، ثم تراجع درجـة من الدرج إلى الخلف وهو يقول: يا عم إبراهيم، حرام عليك فزعتني، هو أنا ناقص!!

ابتسـم الحاج إبراهيم وهو يقول: ما لك يـا دكتور عادل؟! يا راجل أنت آخر واحـد ممكن يخاف في العمارة دي، أنت راجل عايش مع الموتى كل يوم، وأكيد حصلك أهوال في المشرحة، تقوم تخاف من الضلمة زي الأطفال الصغيرة؟!

- يـا عم إبراهيم، أنـا راجل غلبان وبخاف من خيالي لكن شـغلي أنا خلاص أخذت عليه.

- ربنا يوفقك يا دكتور.

- لكن يا عم إبراهيم، أنت نازل في الضلمة دي تعمل إيه؟

وقبل أن يجيب الحاج إبراهيم عن السـؤال رجت العمارة صرخة مدوية تأتي من الدور الثاني.

صرخ عادل: استُرْ يا رب!

ثم صعد مُسْـرعًا إلى الدور الثاني ولكن من شـدة الظلام سـقط على السُّلم ووقع على رأسه.

لم يســتطع أن يقف، وظل جالسًــا وجسده مُمدَّد على الســلم، والصرخات ترتفع، ومرَّت لحظات تساوي عمره كله، ثم عاد التيار الكهربائي من جديد.

وبــدأ في الصعــود مرة أخرى على الدَّرَج وأذنه مــا زالت تتبع صوت الصراخ الذي تحوَّل بعد فترة إلى بكاء شديد، وأخذ يقترب من مصدر هذا البكاء، وكانت الصدمة عندما اقترب من الشقة التي يخرج منه الصوت.

وقبل أن يســأل عما حدث ســمع من أحد الجيران يقول: لا إله إلا الله، الله يرحمك يا عم إبراهيم، كان راجل محترم.

أظلمت الدنيا في عينيه، والحقيقة أعلنت عن نفسها بكل وضوح؛ الرجل الذي كان يُكلمه من لحظات ما هو إلا شبح أو عفريت عم إبراهيم!

تجمَّدت الدموع في عينيه، وتجمدت الأفكار في رأسه، وشعر بالعجز الكلي عــن التفكير، واتجه وهو مندفع بدافع الرعب والفزع إلى باب شــقته، أحس أن قلبه يتوقف ودماءه تتجمَّد في داخله، وأن نهايته قد حانت.

جَلَسَ على المكتب الخاص به وهو يحاول أن يتمالك نفســه بصعوبة، كانت رجولته هي التي تمنعه من الانهيار التام بعد كل هذه الأحداث وأولئك الأشخاص الذيــن ظهروا فــي حياته في يوم واحد، ثــم رفع الهاتف الــذي كان ما زال بين يديه، واتصل بهاتف عيادة الدكتورة هالة، وترك رسالة على المجيب الآلي وكانت الرسالة: «أريد أن أحضر معك غدًا جنازة مريم إبراهيم».

ثم استســلم للنوم. وفي الصباح الباكــر جرس الهاتف الأرضي يرن في الغرفة المجاورة لغرفة نومه، يصل إليه ويرفع السماعة:

ألو، أيوه يا دكتور، أنا هالة، أنا في انتظارك أسفل العمارة، يا ريت تجهز بسرعة.

يضع السـماعة ويذهب لتغيير ملابسـه ثم يفتح الباب، ويُسرع إلى النزول، وفي مدخل العمارة يسمع مَنْ يُنادي: صباح الخير يا دكتور عادل.

- أهلًا أهلًا يا معلم تهامي، أنت فين يا راجل؟!

أنت مش ظاهر في العمارة من فترة طويلة، وسألت عليك قالوا إنك مريض، خير؟!

- يعني كان فيه شـوية حسابات بأصفيها، والنهارده كنت عايز يوسف البواب علشان يعرض الشقة للبيع أو الإيجار.

- قصدك يوسف باشا البواب؟!

- ليه كده يا دكتور؟! ده الراجل مسكين في العناية المركَّزة من ١٠ أيام، ربنا يشفي.

عادل: تصدق يا معلم تهامي أنا لسه فاكر إن آخر مرة اتكلمت معاه كان فعلًا مريض جدًّا؛ أنا ظلمت الراجل، على العموم ربنا يشفي. بعد إذنك يا حاج تهامي علشان عندي ميعاد مهم وطمِّنِّي عليك.

- إن شاء الله يا دكتور.

ثم خرج مسرعًا إلى خارج العمارة.

- صباح الخير يا دكتورة.

- صباح الخير يا عادل.

الجنـازة في كنيسـة البازليك، مصـر الجديدة، لكن أنت إيـه اللي غير رأيك بالسرعة دي؟

- نوصل الجنازة، وبعد كده نتكلم يا هالة.

عندمــا وصلا إلى الجنازة كان كُلُّ شــيء عاديًّا، وقــف مجموعة من المُعزِّين أمــام أبواب الكنيســة، وكان على رأســهم مجدي أخو زوج مريــم، وبعض الأهل والأصدقاء، وبعد مرور وقت من الصمت خرج نعش خشبي محمولًا على الأعناق، ووُضع في سيارة سوداء مكتوب عليها (كنيسة البازليك- مصر الجديدة).

وبعد ذلك ارتفعت أصوات أبواب السيارات التي تُغلق استعدادًا للتحرك خلف الســيارة الســوداء إلى مقابر العائلة في مدينة ٦ أكتوبــر، وفي أثناء ذلك حدث شيء غريب؛ وقفت على الرصيف الذي تحركت منه السيارة السوداء سيدة بيضاء مثل الثلج، أشبه بمن خرج من الثلاجة بعد أن تجمَّد تحت الصفر، نظر عادل إلى هالة، وفي كلمة واحدة: هذه مريم! عندها اختفت السيدة من أمامهما، صرخت هالة: أنا كنت عارفة إن فيه سر في موتها، وإن روحها غير مرتاحة.

نظر إليها عادل وهو لا يســتطيع أن يُخرج الكلمات من لســانه، أنا ســمعت صوتها في غرفة التشريح، أنا عايز أعرف عن حياتها كل حاجة مِن فضلك يا دكتورة.

تحركــت الدكتورة إلى الأمام قليلًا وقالــت: صدِّقني حكايتها هتجعلك حزين، لكن البداية بعد التخــرج وجوازها من إيهاب، وبعد كده منزلها الغريب، وعائلة جوزها الأكثر غرابة.

بعد وفاة أهل إيهاب في المنزل الكبير وســفر مجدي أخو إيهاب إلى فرنسا انتقلت مريم وزوجها إلى هناك، وتركت شــقتها في المعادي، وذهبت إلى مصر الجديدة في المنزل الذي تربَّى فيه زوجها، ظل كل شيء كما هو في ذلك المنزل الكبير، الأثاث العتيق، طقم الفضيات القديم، اللوحات الزيتية الباهتة، الســتائر ذات الألوان الكئيبة التي تمنع دخول أشــعة الشــمس، كل شيء.. حتى الصمت

القاتل لم يتغير شيء لعقود طويلة، كل شيء في المكان يُوحي بملَل وكآبة، ولم يكن هناك سوى ذلك الصوت لبندول ساعة الحائط الخشبية وهو يطارد الثواني واللحظات بلا تَعَب أو كلَل، مطاردة لم تعُد تعني شيئًا بالنسبة إلى مريم وزوجها الذي كان اعتاد على هذه الحياة من قبل مع عائلته التي رحلت منذ فترة، ولم يتركوا وراءهم سوى الصمت والظلام ورائحة الموت التي تُعطِّر جنبات المكان.

وفَوْق كل هذا الجو غير المريح والمكتئب، وهذا الملل والهدوء القاتل الساكن والمخَيِّم على المكان، كانت تحدث من حين لآخر أمور غريبة ومخيفة؛ أبواب وشبابيك تُغْلَق وتُفْتَح من تلقاء نفسها، أصابع خفِيَّة تُغيِّر محطات الراديو، صرخات مُفزعة آتية من مكان مجهول، رجل كبير في السن يرتدي بدلة سوداء قديمة الطراز، ويُمسك في يده حقيبة سوداء، ينزل السلم مُسرعًا من الطابق العلوي وهو يصرخ، يسير بسرعة نحو الباب، يريد أن يغادر المنزل لكن يختفي ويتلاشى فجأة قبل أن يصل إلى باب المنزل، لكن ذلك لم يكن المفزع في هذا المنزل، كانت تسمع (مريم) صوتَ طلْق ناري يدوي فجأة آتيًا من الغرفة التي تقع فوق سلم الدور الثاني، ثم بعد ذلك تسمع خطوات لأشخاص غير مرئيين على درج السلم، وكانت خطوات مُسْرعة، ثم تسمع صوت طرقات قوية على باب الغرفة التي خرج منها صوت الطلق الناري، بعد ذلك يعود المكان إلى الصمت، وكأنَّ شيئًا لم يحدث! وكانت مريم في بداية الأمر لا تجد تفسيرًا لهذه الأحداث الغريبة وغير المنطقية حتى أخبرها زوجها بعد ذلك.

- تساءل عادل بفضول: وكيف عرفتِ كل هذه الأحداث والتفاصيل؟ فنظرت إليه بأسى وحزن شديدين، وأجابت بشيء من الحزن: لقد طلبتْ مريم مني

المبيت في بيتها عندما تُوفِّي زوجها، ولقد سـمعت ورأيت كل هذا، ولم أصدقها عندما كانت تحكي كل هذا قبل أن أرى كل شيء بنفسي.

- ومَنْ هؤلاء الناس يا دكتورة؟

- إنـه الماضي البغيض.. لعنـة قديمة تأبى أن تغادر هذه العائلة، ويبدو أنها تطاردني أنا أيضًا.

- لعنة قديمة!! لا بد وأنكِ تمزحين، أو نسيتِ أنك دكتورة وإنسانة مثقفة، لا توجد لعنة أو حظ، هذه الأمور توجد في القصص الخيالية!!

- أنـت طبعًا عندك كل الحق في عدم تصديقك لهذا الكلام؛ فأنت لا تعلم ما الذي حدث لهذه العائلة المنكوبة.. أقصد (الملعونة).

- وما الذي حدث يا دكتورة؟ أخبريني رجاءً.

- إنها قصة طويلة ومُفْجعة.

- وماذا وراءنا؟! أنا لستُ على عجلة من أمري.

- كان لدى جد مجدي ثلاثة أولاد وابنة وحيدة، أصغرهم كان نجيب، ويعرف باسـم (نجيب الصغير)، لكن كان أقرب الأبناء وأحبهم إلى قلب جد إيهاب، كان ابنه الثاني (بيتر)، والذي كان مرشـحًا لوراثـة المنزل والمصنع ومحلات الصاغة، لكـن إنها الأقدار التي تغير كل شـيء، جاء تجنيد بيتر ضابطًـا احتياطيًّا، وكانت فرحة أبيه لا تُوصف، وكان يفتخر بابنه بين أصدقائه من التجار ورجال الأعمال إلا أن الفرحة لم تَدُم، وجاء خبر موت أعز أبنائه (بيتر) الذي تُوفِّي في حرب العدوان الثلاثـي، كان قد بلغ ٢٤ عامًـا فقط، وبموته تغيرت حياة الأب تمامًا، أصبح كئيبًا وحادَّ المزاج، صار يتحاشـى الناس مُمضيًا أيامه ولياليـه وحيدًا غارقًا في أحزانه.

وفي النهاية وضع حدًّا لهذا العذاب. حدث ذلك في الصباح الباكر وهو ذاهب إلى المصنــع، ويحمل حقيبة الأوراق. كان الجميــع في انتظار الأب عندما ينزل حتى يتناولوا إفطارهم معه، كان كل شيء مُعَدًّا وجاهزًا، والخدم يقفون حول المنضدة ولكن الأب تأخَّر عن ميعاد النزول المعتاد، وقبل أن يصعد أحد الخدم إليه سمعوا فجأة صوت إطلاق نار آتيًا من حجرة والدهم الواقعة فوق السلم مباشرةً.

وبعد أن ســمعوا صوت إطلاق النار أســرع الخَدَم والأبناء إلى حجرة والدهم علــى الدَّرَج. طرقــوا الباب لكن لم يُجبهــم والدهم فاندفعوا بقــوة تجاه الباب فكســروه، وعندما فتــح الباب كان والدهم مُمــدَّدًا على الأرض والدماء تســيل من رأســه. لقد أنهى حياته وانتحر برصاصة في الرأس. ومن المؤســف بعد ذلك بســنوات قليلة تُوفــي ابنه الآخر بعد صراع مع مرض الصَّرَع، وســافرت ابنته مع زوجهــا إلى أمريكا ثم تُوفيت هناك، ولــم يتبقَّ أحدٌ من أبنائه غير إيهاب نجيب الذي ورِث كل شيء. وعندما تزوج بوالدة إيهاب بدأت تسمع هذه الأصوات، لم يُصدِّقها زوجها في البداية، لكن بعد ذلك بدأ الحديث بين الخدم في المنزل عن سماعه طلقًا ناريًّا كان مصدره تلك الغرفة، يليه وقع خطوات على الدرج لأشخاص غير مرئيين يصعدون الســلم، ويطرقون الباب مرارًا وتكرارًا، بعد ذلك الباب يفتح ويغلق من تلقاء نفســه، كان ذلك يُسبِّب الفزع لجميع مَنْ في المنزل مِمَّا جعل الأب يغلق الغرفة، ويمنع أي أحد من الدخول أو الاقتراب مِنْ هذه الغرفة.

عادل: هذا شيء لا يُصدَّق!

العجيــب أن الصوت أصبح يأتي في أيام دون أيام، ولكن اللعنة لم تنتهِ عند هذا الحد.

في صباح الشـتاء الماضي اسـتيقظ المنزل على صوت طلْق ناري لكن هذه المرة لم يأتِ من الغرفة المغلقة، لقد كان من غرفة مكتب زوج مريم.

عادل: لا، مستحيل انتحر مثل والده.

- هـذه هي الحقيقـة يا دكتور، انتحر بعد أن كتب كل شـيء باسـم مريم. والأعجـب عندما تعـرف أن عمة زوجها التي هاجرت إلـى أمريكا مع زوجها قد انتحرت هي الأخرة بطلقٍ ناري.

عادل: ثلاثة من عائلة واحدة يموتون بنفس الطريقة.

هالة: ألم أقل لك إنها اللعنة؟!

- نعم.. نعم، لكن ماذا عن زوجها؟ وكيف كان يتعامل معها؟!

توقفت هالة قليلًا، ثم نظرت إلى السماء وقالت:

لم يكـن إيهاب رجلًا عاديًّا، فهو يهوى النسـاء خصوصًا مَنْ تتمتع بالضخامة والبـروز؛ فهو يقيس المرأة بحجم البروز، ينظر إلـى المرأة بعينين مثل المنظار على الأجزاء البارزة من جسمها ليقيس عُمق الأنوثة في المرأة، ومِن هذا التفكير والمنطلـق الغريزي غرق في علاقات سِـرِّيَّة كثيرة، ولكن كانـت أكثرها وضوحًا وغرابـةً علاقته مع قريبـة زوجته مريم التي كانت في سـن المراهقة والطفولة، كانت في الثامنة عشرة من عمرها وهو في نهاية العِقد الثالث، كان في أول الأمر لا يُعِيرها أبدًا أي انتباه مع أنها عرضت نفسها بكل صراحة عليه، ولكنه رفض ذلك، والحقيقة أنه لم يفعل هذا بدافع الأخلاق أو الشَّـرف، ولكن خوفًا من أن يُفْضَح أمرُه أمام عائلته أو أن يكون هذا فخًّا مِنْ زوجته مريم وقريبتها جعله يرفض في بداية الأمر ثم بعد ذلك دخل معها في علاقة. وكانت (رشـا) -وهذا هو اسـمها-

صغيرة في الســن نعم، ولكن كانت صاحبة خِبرة كبيــرة في التعامل مع الرجال؛ أوقعت إيهاب في شباكها ثم بعد ذلك غَدَرت به، وتعالت عليه وغيَّرت معاملتها معه، وأخذت في كل مناسبة تُذَكِّرُه بفارق السن بينهما. تغير حاله وأصبح يهمل عمله وزوجته وبيته، ويجلس بالســاعات في غرفة مكتبه ينتظر رنة جرس هاتفه، ولكــن كانت النهاية عندما حضرت الخادمة إليه بدعوة مكتوب عليها: (تتشــرف عائلة السيد داود وعائلة السيد إسكندر بدعوتكم وحرمكم المصون لحفل الإكليل الخاص بالســيدة رشا داود والأستاذ فكري إســكندر بكنيسة القديس مار مرقس بمصر الجديدة). بعد ذلك فَقَدَ توازنه وأعصابه، وكتب في مذكراته:

«زوجتي العزيزة، أنا آسِف على عدم احترامي الرباط المقدس الذي يربطني بكِ، وأعرف أنه لا يوجد أي شيء يُعوضك عن هذا، ولكن اعتبري كل ما أملِك هو هدية لكِ من زوجك الذي تســبب لكِ في الألــم والحزن، زوجكِ الذي لم يُخلص لكِ، وأشكركِ على إخلاصك وكرمك».

بعد ذلك أطلق النار على نفسه.

هنــا تذكــر عادل زوجته نجلاء التــي يحبها ويُخلص لها مِــنْ كُلِّ قلبه مع كل المشاكل التي كان يقابلها معها من الحين للآخر.

وصلت الجنازة إلى مقابر العائلة، وبعد مراسم الدفن ذهب عادل إلى منزله، وخلــع جاكتته، وتحرَّر، واســترخى على الكرســي، وظَلَّ جالسًــا يفكر في كل ما حَدَث حتى تأخر الوقت، واســتعدَّ إلى الذهاب للنوم وخلع ملابســه، ولكن فجأة ســمِع صوتًا غريبًا يأتي من البلكونة، صوت أقدام شــخص يمشي داخل البلكونة

أو تحديدًا على ســور البلكونة. تجمَّد في مكانه وشــعر بخوف، اقترب ونظر عبر شيش البلكونة ومن خلفه الباب الزجاجي الذي لم يكن مغلقًا جيدًا.

ففتح الشــيش وأغلق البــاب الزجاجي، ولكن الصوت ما زال مســتمرًا. هناك صوت أقدام لشخص ما يمشي على سور البلكونة الحديد.

اقترب أكثر وأضاء نور البلكونة. ســكت الصوت للحظات لكن سُرعان ما عاد مــرةً أخرى لكن بقوة وشــدة أكبر. انتظــر عادل لدقائق ثم تقــدَّم من البلكونة، وعندمــا فتــح البلكونة لم يجد أحدًا ثم نظر إلى أســفل العمارة لم يجد مخلوقًا خصوصًا في هذا الجو شديد البرودة.

ثــم أغلــق البلكونة مرة أخرى، ولكن عندما أطفأ النــور كانت المفاجأة، كان يســمع صوتًــا يعرفه من قبل؛ إنــه صوت مريم، كانت تصرخ وهي تمشــي على الســور ثم تســقط من البلكونة وتصطدم بالأرض، ثم لحظــات ويعود صوتها في البلكونة وتصرخ، ثم يســمع صوت اصطدامهــا بالأرض.. يفتح عادل الباب خارجًا من شــقته شــبه عارٍ حافيًا مذهولًا، وينزل على الســلم صارخًا، ويتجمع الجيران على أبواب الشقق التي فتحت أبوابها لتصبح فضيحة في العمارة. يصل عادل إلى مدخــل العمارة، ويجد المعلم تهامي يقف في مدخل العمارة ويُمســك في يده عباية بيضاء ويقول: «امسك يا عادل يا بني استُر نفسك».

يجلــس عادل على مدخل العمارة وقد خــارت قواه، وبدأ في نوبة من البكاء الشــديد. وهنا تدخَّل المعلم تهامي واقترب منه وقال: «وحِّد الله يا عادل يا بني وقُلِّي مالك وإيه اللي عمل فيك كده، وإيه اللي وصلك للحال ده؟».

يأخذ عادل نَفَسًــا عميقًا ثم يخفض رأســه إلى أســفل ويقول: بدأت الحكاية

يـا معلم تهامي فـي حفلة عيد الميلاد أو تحديدًا بعـد أن ظهرت المرأة العجوز في طريق عودتي إلى المنزل، وأخذت تصرخ عليَّ بكلمة: «مسـكين.. مسكين». ثم بعد ذلك جثة مريم التي همسـت في أذني، والرجل العجوز الذي ظهر فجأة واختفى فجأة بعد أن سـلَّم إليَّ رسـالة من العالم الآخر، ثـم بعد ذلك عفريت الحـاج إبراهيم الذي تحـدث إليه في أثناء رحيله من العمـارة، وجثته كانت ما زالت في فراشـة، والآن أسـكن مع شـبح أو عفريت مريم التي ماتت بعيدًا عن شـقتي، ولكن مِن الواضح أنها قد أعجبتها اللعبة، وأصبحتُ مطاردًا من كل هذه الأشباح. والآن أخرج من شقتي حافيًا عاريًا أمام الناس مثل المجنون، وإضافة إلى كل هذا أفتقد زوجتي نجلاء.

أليس كل هذا سببًا حتى أصل إلى ما وصلتُ إليه؟! لقد أصابتني اللعنة.

نظر إليه المعلم تهامي وهو يرفع رأسـه ونظره إلى السقف، ثم قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، اسـمع يا عادل يا بني، أنا زمان وأنا شـاب صغير كنت لا أعتقد في وجود الجن أو الأشباح والعفريت حتى حدث شيء غيَّر كل تفكيري وجعلني أُعِيد كل حساباتي مرة أخرى.

- وما هو هذا الشيء الذي حَدَثَ لك يا حاج تهامي؟!

- بدأت الحكاية عندما اشـتريت كتاب (شمس المعارف الكبرى)؛ وهو كتاب معروف من كثرة الإشـاعات التي قِيلت عنه، لقد اشتريت الكتاب بدافع الفضول فقـط لا أكثـر. وعندما عَلِم أبي -رحمه الله- بذلك انفعـل عليَّ وقال: لماذا تقرأ مثـل هذه الكتب؟! أليس مـن الأفضل أن تقرأ كُتُب السـيرة أو تقرأ كُتُب العلم والعلمـاء بدلًا من كتب السـحر؟! وكنت أقـول له: يا أبي، هذا أيضًـا يُعدُّ علمًا،

الكتاب يتحدث عن الفلك وعلم النجوم، وليس عن السحر فقط. المهم في هذه السنة حدث في عائلتي شيء حزين وغير اعتيادي جعلني أغيِّر تفكيري في عالم الجن والأرواح.

عادل: وما هذا الحدث؟

يبتسم المعلم تهامي ثم يقول: اسمع يا عادل يا بني ما حدث.

في أحد أيام الشتاء من عام١٩٨٠ تُوفِّيت عمتي رحمها الله، وكانت صدمة كبيرة للعائلة كلها خصوصًا في طريقة موتها البشعة؛ لقد ماتت مقتولة.

ارتعش عادل وهو يُردِّد كلمة «مقتولة»!

- نعم، يا عادل يا بني مقتولة؛ كان زوج عمتي رجلًا مدمنًا للخمر، ويتعاطى المخدرات، وكانت له علاقات مشبوهة كثيرة جدًّا، وكان هذا هو المصدر الرئيسي في الخلافات التي كانت تحدث دائمًا بينه وبين عمتي، وفي يوم اشتد بينهما الخلاف، ضربها بمطفأة السجائر على رأسها، ولم يكتفِ بذلك بل ذهب وأحضر سِكِّينًا من المطبخ وهي مُلقاة على الأرض من أثر الضربة على رأسها، ثم أخذ يضرب جسدها الضعيف ويطعنها، وبعد ذلك رجع إلى المطبخ وأحضر ساطورًا وفصل رأسها عن جسدها، ثم دخل ونام، وبعد فترة استيقظ على صراخ الأطفال، وعندما خرج من الغرفة ووجد هذا المنظر صرخ، وكان الوقت متأخرًا من الليل. هَمَّ بيقتل نفسه بعد أن أفاق من الهيستيريا التي أصابته عندما قتل زوجته وأم أولاده. لكنه لم يمتلك الشجاعة لقتل نفسه، ولهذا قرَّر تسليم نفسه إلى أقرب قسم شرطة، وحُكِم عليه بالحبس خمسة وعشرين سنة ومات في السجن، وكانت هذه هي عدالة السماء.

قبل ذلك ذهبت أنا وأبي إلى شـــقة عمتــي حتى نحضر بعض الأغراض لأولاد عمتي الذين ذهبوا للعيش عند جدتي رحمة الله عليها، وكان على باب الشقة أثر الشمع الأحمر لا يزال موجودًا.

دخلت مع أبي الشـــقة وأنا لا أُخفي عليك شـــدة الخوف والارتباك التي كنت فيها وأنا داخل المكان الذي قُتِلَتْ فيه امرأة أعرفها جيدًا، أعرف صوتها وضحكتها، وأشجانها ووجعها، أعرف حياتها كلها. دخل أبي إلى غرفتها وسمعت بكاء أبي آتيًا مــن غرفتها؛ لذلك لم أُرِد الدخــول إليه، ووقفت أنا في الصالة، وفجأة تذكرتُ أن أقف في الصالة التي قتلها زوجها فيها. بدأ المشـــهد يتجسد أمامي وأسمع صوت بــاب المطبخ يُفْتح ويُغْلق، ثم أســمع صوت الأواني، ثم صــوت فتح وغلق في أدراج الســكاكين والملاعق، وكانت الصدمة والمفاجأة؛ لقد ظهرت عمَّتي أمامي، وكان كل جسدها مُلطخًا بالدماء وهي تصرخ وأسمع صوت جسدها وهو يتقطع، وكانت تجري وتقع على الأرض ووجهها كله ملطخ بالدماء، ثم انفصلت رأسها عن جســـدها وأنا أصرخ على أبي لكنه لم يسمع صراخي. وفجأة تكلَّمتِ الرأس وهي تنظـــر إليَّ، وقالت: «أنت هنا أنـــت وأبوك بتعمل إيه يا تهامي؟ وعايزين إيه من شقتي؟!». عندها وقعتُ على الأرض مغشيًّا عليَّ، ولما رجعتُ إلى وعيي وجدت نفسي في منزلي وعلى سريري. لم يصدِّق أبي أو أحد من إخوتي هذه القصة بل علــى العكس؛ منهم مَنْ اتهمني بالكذب أو الجنون، وأبي حاول أن يقنعني أن ما حدث كان بسبب قراءتي لكتاب (شمس المعارف الكبرى)، ولكن بعد فترة قصيرة حدث شيء جعل الجميع يُصدِّق قصتي وما حدث معي.

- وما هذا الشيء الذي حدث يا معلم تهامي؟

- غدًا أحكي لك، لقد أذن المؤذن لصلاة الفجر، ويجب أن أذهب، وأنت أيضًا يجب أن تصعد حتى تنام قليلًا.

- لا، أنا أريد أن أعرف ما الذي حدث وغيَّر رأي الجميع؟

خرج الحاج تهامي من مدخل العمارة إلى ناحية المسـجد، وصَعِد عادل إلى شقته ومدَّد جسده المتعب على السرير.

في الصباح الباكر ينزل عادل من شـقته مُسـرعًا إلى العمل، يصل إلى الممر الضيق ثم إلى داخل المشرحة، وبعد ذلك يذهب إلى غرفة التشريح، يُخْرِج بعض الأوراق، يحاول أن يجد شيئًا غريبًا عن قضية مريم.

بعد ذلك يدخل المسـاعد خالد إلى غرفة التشريح، ويحمل على العربة جثة، وعندما يكشـف الغطاء عن الجثة أنها جثة لرجل في الخمسـين من عمره، يأخذ عـادل الأوراق المرفقـة مع الجثة، يجد أن الجثة لأحد المهندسـين وتظهر عليها علامات الشدة والصرامة.

سـبب الوفاة طلْق ناري في الرأس، ووجد مع الجثة رسالة وفيها: «لقد قتلتُ نفسـي حتى أرتاح من كل هـذه الكراهية التي من حولي، لقـد انتحرت بعد أن تركني الجميع».

نظر عادل إلى وجه الجثة وهو يقول: «إذن شبح جديد يُضاف إلى القائمة».

باشـر عادل عمله حتى انتهى من تشـريح الجثة في السـاعة الثانية عشـرة ونصف، ثم ذهب بعد ذلك إلى غرفة الغسـيل التي كان يقف فيها عم موسـى، وبعض أهل الجثة. وقف على باب الغرفة من الخارج بعض الأصدقاء والجيران في

الانتظار حتى ينتهي التغسيل؛ مما جعل عادل ينزل الدرج إلى غرفة البوفيه حتى يستطيع أن يجلس مع نفسه قليلًا.

كان بعض أصحاب الميت يقفون على أول الدرج، يُشعلون السجائر، وبدأ الحديث عن الجثة ولماذا انتحرت؟ وكيف كانت حياته والحقيقة التي سمعها عادل من هؤلاء الناس كانت شيئًا مُرْعِبًا عن صاحب هذه الجثة؛ مما جعله يشمئز من هؤلاء الأصدقاء والأهل الذين فضحوا الرجل قبل أن تخرج جثته من المغسلة.

بعد ذلك خرج عادل من العمل وذهب إلى منزله، وفكَّر في أن يذهب إلى بيت أهل زوجته لكن سرعان ما عاد عن ذلك القرار، وقال: هذا ليس الوقت الذي تعود فيه نجلاء إلى البيت في وسط هذه الأشباح والعفاريت والأشياء الغريبة، دعك منها الآن، واتركها تعيش في سلام.

عاد إلى المنزل وجلس على الكرسي المفضَّل لديه.

جرس الهاتف يرن:

- ألو، أيوه يا دكتور محمود عامل إيه؟

- لا، أنا قاعد في البيت، واحتمال أنزل أسأل على المعلم تهامي علشان عايزه في موضوع مهم.

- خلاص يا دكتور محمود، لو نزلت هكلمك، مع السلامة.

بعد أن يضع السماعة يرن جرس الباب فيذهب مسرعًا لفتحه، وعندما فتح الباب وكان على أمل أن يجد أمامه زوجته نجلاء، لكنه وجد المعلم تهامي أمامه.

- اتفضل يا حاج تهامي، البيت بيتك.

- ربنا يكرمك يا دكتور عادل، أنا كنت عايز أطمن عليك فقط.

- أنت عامل إيه النهارده؟

- والله يا حاج تهامي أنا خلاص ابتديت أصاحب الأشباح والعفاريت.

يضحك المعلم تهامي ويقول: وهُمَّ كمان هيصبحوا أصحابك!!

المهم يا حاج تهامي، إيه بعد كده حصل جعل والدك وإخواتك يصدقوا قصتك؟

- اسمع يا عادل يا بني.

بعد قصتي بفترة صغيـرة، وعندما ذهب أبي والعائلة إلى المقابر لزيارة قبر عمتي، وبعد أن جلسـوا في مدخل المقبرة، وبدأ المقـرئ يقرأ القرآن، والجميع يجلس يسـتمع دخل التربي مُسْـرعًا إلى المدفن وهو يصرخ على أبي: «يا حاج سعيد.. يا حاج سعيد!».

نظـر أبي إليه ثم قام من مكانـه وقال: «خير فِيه إيـه؟ ومالك بتصرخ عليَّ كـده؟!». عندها توقف المقرئ عن قراءة القرآن ثم قام ورحل بعد أن أعطاه أبي بعض النقود، ثم قال التربي: «يا حاج سعيد، أختك يا حاج».

نظر أبي إليه وقال في حِدَّة: «أختي.. أختي مين؟».

فأجاب: «أختك سـميحة المدفونة هنا». عندها ارتعش جسد أبي وقد شاهد ذلك كل الموجودين في المدفن.

وصرخ أبي في وجه الرجل: «اتكلم على طول فيه إيه؟!».

«أختك يا حاج كل يوم تصرخ والناس اللي سـاكنة المدافن بيشـوفوها وهي خارجة بالليل من القبر وماسكة رأسها في إيديها»!

قالهـا الرجل وهو يتراجع إلى الخلف من شـدة الغضب الذي كان على وجه والدي رحمه الله وهو يسمع هذا الكلام.

بعد ذلك صرخ أبي على الرجل: «أنت مجنون ولا بتعمل مجنون علشان أزود الشهرية بتاعة الحراسة؟!».

قال الرجل في صوت المكسـور: «يا حاج سـعيد، أنا هنا علشان أبلغك إن أنا ولا أي حـد من عيلتي كلها هيكون لـه دعوة بعد كده بالمدفن بتاعكم، واتفضل المفتاح بتاع المدفن».

وخرج مُسرعًا من المدفن ووقف أبي في دهشة مما حدث!

الغريب أن أبي لم يُصدِّق أيضًا الرجل، وكان يظن أنه يريد بعض النقود، ولكن بعد فترة قصيرة بدأ جيران عمتي في العمارة التي كانت تسـكن فيها يسـمعون أصوات صرخـات وأصوات أوانٍ وأبواب المطبخ تُفتـح وتُغلق. وكانت الصرخات تزيد في الوقت الذي قُتلت فيه. بدأ سكان العمارة بل الحي كله ليس له حديث غير هذه الشـقة، وما حدث فيها، وكان أبي يسـمع ذلك بكل حزن. كانت عمتي البنـت الوحيدة على ثلاثة رجـال، وكانت تربطها به علاقة صداقة أكثر من جميع إخوته، كانت جميع أسـراره معها منذ الصغر، وظل على هذه الحال حتى اشـتدَّ عليـه المرض وتوفِّي رحمـة الله عليه بعد ذلك بعامٍ واحـد، وكان ذلك أيضًا في الشـتاء، والغريب أنه نفس الشهر الذي تُوفِّيت فيه أخته، وكان يوم الجنازة يومًا عاصفًا، وعندما وَصَلَ الجثمان إلى مدفن العائلة حَدَثَ شيء غريب.

- وماذا حدث يا حاج تهامي؟! أكمل رجاءً.

يبتسم الحاج تهامي إلى عادل ثم يقول: غدًا أكمل لك، لقد تأخر الوقت وقد أخذني الحديث والفجر على الأبواب، ويجب أن أذهب.

وقبل أن يتكلم عادل كان الحاج تهامي قد فتح الباب، وأصبح خارج الشقة.

عاد الدكتور عادل إلى غرفته، ومدَّد جسده على السرير، وقبل أن يغلق عينيه سمع همسًا في الغرفة، وعلم أن هناك شخصًا يقف على الباب من الخارج.

يســحب عادل غطاء السرير على وجهه، ولكن يسمع وقع أقدام تقترب منه، وصوت أنفاس مكتومة، وأصبحت الغرفة مثل الثلاجة من شِدة البرودة، وما زالت الأقــدام تقتــرب حتى أحس أن صاحــب هذه الأقدام أصبح يجلــس بجواره على الســرير وهو تحت الغطاء، لا يســتطيع أن يفتح عينيه من شدة الخوف والرُّعب ثم شعر بأن وقع الأقدام بدأ يخرج ويبتعد عن الغرفة شيئًا فشيئًا.

حتــى اختفى تمامًــا، وما زال هو يرتعش من الفزع، ومــع برودة الغرفة كان العرق يتســاقط مــن فوق جبينه، وبــدأ الفجر يؤذن وهو يريــد أن يقوم ويرفع الغطــاء عن وجهه لكــن لم يكن عنده الشــجاعة لفعل ذلك، وظــل هكذا حتى الصباح ثم خرج مُسْــرعًا وهو يُمْسك في يده ملابسه، ووقف يلبس ملابسه أمام باب الشــقة في مشهد مهين، ثم نزل إلى الشارع مسرعًا، وأمسك الهاتف واتصل بعيــادة الدكتــورة هالة، وترك رســالة على المجيب الآلي وفيهــا: «رجاء يا هالة عندما تصلك الرســالة ســوف أكون أمام منزل مريم في مصر الجديدة، وأريد أن أقابلك هناك، رجاءً عاودي الاتصال بي».

يصــل عادل إلى منزل مريم في مصر الجديدة، والحقيقة كلمة منزل ليســت الوصــف الدقيق؛ لقد كان مبنى على طراز ثلاثينيات القرن؛ لذلك وصف الســرايا هــو الوصف الدقيق للمنزل. يقترب عادل من البوابة الحديدية، ويحاول أن ينظر من السور الحديدي، لكن كانت الأشجار والفروع التي تخرج من السور الحديدي

تحجب عنه الرؤية. حاول أن يتسلق السور وعندها سمع صوت رجل قال: «أنت مين وعايز إيه؟!».

يرتبك عادل وينظر إلى الرجل الذي يبدو من ملابسه أنه حارس المكان، ولا يجد شيئًا يقوله غير: «أنا صاحب مجدي، وكنت عايز أعرف هو موجود؟».

ينظر إليه الرجل ويقول: «مجدى مين؟! هنا مفيش حد اسمه مجدي يا باش مهندس، هنا سرايا إيهاب بيه وحرمُه مريم هانم. يلزم خِدمة تانية؟!».

ثم فجأة تظهر الدكتورة هالة وتقترب من الحارس وهي تبتسم:

- إزيك يا عم صادق.

- إزيك يا دكتورة هالة، أخبار حضرتك إيه؟ عرفتِ اللي حصل لدكتورة مريم؟!

ثم نظر إلى السماء وقال: لله الأمر من قبل ومن بعد، هو دا حال الدنيا!

تضع هالة يدها على كتف الرجل وهي تقول: شد حيلك يا عم صادق!

هالة: يا عم صادق، مين موجود من أهل هالة هنا؟

- والله يا دكتورة كلهم في البيت التاني، والست الكبيرة والدة مريم بترجع بالليل.

- خلاص يا عم صادق، أنا هرجع مرة تانية بالليل علشان أقابلها، يلَّه يا دكتور عادل.

ينطلق عادل معها في شوارع مصر الجديدة، وتمضي فترة وهو صامت لا يتكلم.

ثم تسأل هالة دكتور عادل: ممكن أعرف أنت إيه اللي بتفكر فيه بالضبط؟

- لا أفهم سؤالك يا دكتورة!

- لماذا حضرت إلى منزل مريم يا دكتور؟

- صدقينــي يا دكتورة، أنا نَفْســي لا أعرف إجابة هذا الســؤال، وفي الحقيقة ليس هذا الســؤال فقط الذي لا أعرف له إجابة، أصبح في حياتي أسـئلة كثيرة لا أعرف لها أي إجابة.

عندها توقفت هالة عن الحركة مما جعل عادل يقول لها: اســمعي يا دكتورة، أنــا في أيــام قليلة انقلبت حياتي رأسًــا على عقب، أصبحت مُطاردًا من أشــباح وموتى لا أعرفهم، وليس بيني وبينهم أي رباط، ولا أعرف عن حياتهم شيئًا؛ لذلك قررت أن أعرف عنهم كل شيء، وأريدك أن تساعديني في ذلك، هل ذلك ممكن؟

هالة: خلاص يا دكتور عادل، أنا معاك؛ لأن مريم كانت تهمني وعايزه أعرف الحقيقة.

بعــد ذلك ينصــرف كل منهما إلى طريقــه، ويعود عادل إلــى منزله، وكانت الساعة اقتربت من الخامسة مساءً.

يصعد إلى شقته ويجلس على الكرسي المفضَّل له، ويغمض عينيه، ولا يحس بشيء من حوله.

يســتيقظ على صوت الهاتف، ينظر إلى ساعة الحائط، الساعة العاشرة مساءً، يرفع الســماعة: أيوه يا دكتورة هالة، أنا بخير وآســف على ما حدث في النهار.. خلاص غدًا بعد أن أنتهي من العمل نتقابل عند منزل هالة، مع السلامة.

ثم يضع السمَّاعة ويدخل إلى الحمام، وعندما أغلق باب الحمام سمع صوت أقدام في الصالة وصوت كرســيه الهزاز المفضل، أيقن أن هناك أحدًا في الصالة.. ليس ذلك فقط بل ويجلس على كرســيه المفضل؛ لذلك وقف بكل جسده خلف بــاب الحمام حتــى لا يُفتح إذا حاول أحــد فتحه، ولكن تذكــر أن الذي يطارده ويجلس الآن على الكرســي ليس إنسانًا عاديًّا تمنعه الأبواب المغلقة ولكنه شبح

أو عفريــت لا تمنعــه أبواب أو حوائــط حتى يصل إلى المــكان الذي يريد بكل سهولة ويُسْر. انتظر عادل داخل الحمام ولكن الصوت هذه المرة لم يبتعِد، على العكس كان مِن الواضح الإصرار والتحدي على عدم المغادرة في هذه المرة.

(2)

الشبح الحزين

بــدأ عادل يفتح الباب مُغْمضًا عينيه وهو يقــرأ بعض آيات من القرآن، وكان كلمــا اقترب من مكان الكرســي يقترب صوت الأنفاس حتى وصل إلى الكرســي وفتح عينيه. كان هناك شــخص يجلس على الكرســي ينزف من الرأس، ويتساقط شعره على الأرض! صرخ عادل ثم سرعان ما توقفت الصرخة بعد أن ابتعد الجسد عن الكرســي وهــو يهمس بصوتٍ منخفض: لن يســمعك أحد؛ فــلا تُضيِّع وقتي ووقتك، واســتمع إليَّ، أنا حضرت إلى هنا حتى تعرف حقيقتي بعد أن ســمعتها من أصدقائي، والحقيقة هم ليسوا أصدقائي؛ فأنا لم يكن عندي أصدقاء في هذه الدنيا؛ ولذلك تركتها كلها لهم.

أنا المهندس حســن عبدالمنعم، لقد وُلِدت والشــر يكمــن بداخلي، وتربيت محرومًــا مقهورًا؛ إذ ماتت أمي وأنا طفل صغيــر، وتزوج والدي بأخرى، فأذاقتني الْمُــرَّ ولــم ترحم طفولتي بل كانــت تضربني وتحرمني من الطعــام بينما تغدق على أولادها -من والدي- بصورة جعلتني أشــتكي إلــى والدي لكنه لم يُنصفني، ولكــي تتخلص مني جعلت والدي يتركني عند خالتــي، قضيتُ في منزلها حياتي محرومًا منبوذًا من أهلي وإخوتي، ولكني أعطيت كل وقتي لدراســتي، وتخرجت في الثانوية لألتحق بكلية الهندســة، ولكن ســاقني حظــي العاثر إلى العمل مع جماعة من المهندسين الذين عاملوني بشدة وعدم احترام لا يتناسب مع قدراتي وذكائــي، فكانــوا يتحالفون ضدي فــي العمل. كل هذه الأمــور اختزنت داخلي،

وصنعت طاقة غضب وحِقْد وسَــخط على مَنْ حولي، وعندما ترقيت الدرجة تلو الأخرى، وأصبح المال والســلطة معي كنــت لا أدخر جهدًا في إذلال مَنْ هُم أقل مني، وكــذا زوجتي كنت أُهينهــا وأولادي كنت أعاقبهم بالضــرْب وأحرمهم من المــال، وفعلت بهم ما فعله معي أبــي. ولم أترك إخوتي من والدي، ولم أنسَ ما فعلتــه أمهم بي، وبدأت أنتقــم منهم، وأذلهم عندما يحتاجون إلى شــيء مِنِّي، وألقيت أحدهم في السجن عندما تعثر في دفع إيصال أمانة، والحقيقة أنا الذي أعطيته المال وأنا أعرف أنه لن يســتطيع ردَّه. وخرجت من إنســانيتي، وتحوَّلت إلى وحش لا يردعه أحد، وكنت أجول بين الناس أصنع الشر وأضر كل من أستطيع دون إحساس بندم أو تأنيب ضمير. أما المسجد فقد امتنعتُ عنه، ولم أكن أعطي الفرصة أمام أحد يعمل معي أن يذهب للصلاة؛ فقد كنت أكره التديُّن، ولولا أنني مسلم حســب الأوراق لما دُفِنت في مقابر المسلمين، فأنا لم أدخل مسجدًا في حياتي إلا للصلاة على أمي، وطوال حياتي كنت أشعر بكراهية للتدين؛ لأنه يُوصِي بالرحمة التي لم أعرفها طول حياتي، ولم أعمل بها، وفوق ذلك كنت أعرف أن كل مَنْ حولي يكرهني حتى أبنائي وزوجتي وزملائي في العمل والناس في الشــارع الذي أســكن بــه؛ من أجل ذلك قــررتُ أن أنهي حياتي، ولكــن أريدك أن تعرف أنني لســتُ نادمًا على ما فعلتُ في حياتي؛ لأنهم لا يســتحقون غير ذلك. أما أنا فمشــكلتي الآن بيني وبين ربي، وأريد منك معروفًا؛ أن تدعو لي حتى يغفر لي ربــي أليس هو الغفور الرحيم؟ ثم تحرك الشــبحُ وخرج من الحائط وعادل ينظر إليه، ثم سقط على الأرض.

وبعدها يســتيقظ على جرس الباب، يحــاول أن يقف على قدميه حتى يصل

إلى الباب، وبعد أن يفتح يسقط مرة أخرى ويجد ذراعًا تمتد إليه لكي تساعده على الوقوف، ينظر وهو يرتعش فيجد المعلم تهامي وهو يقول: «قُوم يا عادل يا بني». يقف وهو لا يعي ما يحدث ثم يجلس على الكرسي وما هي إلا ثوانٍ ويصرخ: لا، لن أجلس على هذا الكرسي بعد اليوم!

يحاول أن يُهدئ المعلم تهامي من روعه وفزعه ويقول: أنت لا تريد أن تعرف باقي الحكاية وما حَدَثَ معي؟

يجلس عادل في زاوية من الشقة ويقول: يكفي ما حدث، ومهما كانت قصتك لن تكون أكثر مما حدث معي الآن، ولكن هات ما عندك.

اسمع يا عادل يا بني، عندما وصلت جنازة أبي إلى المدفن كان الوقت متأخرًا، بعد أن صلَّينا عليه صلاة الجنازة بعد العصر، ودخل إخوتي وأهلي المدفن، وقفت على باب المدفن أبكي والدي رحمه الله، واذا بصوتٍ يهمس إلى أذني، وكان صوتًا أعرفه جيدًا، إنه صوت أبي. كان الهمس غير مفهوم، وما هي إلا لحظات، وبعد أن نزل جثمان أبي إلى القبر أُفاجأ بأبي أمامي تقف بجانبه عمتي يبتسمان، وكانت هذه المرة غير المرة السابقة التي رأيتها فيها.

كانت بكامل جسدها وبملابس بيضاء نظيفة، وجدتُ على وجهها علامات الرضا والسعادة. حاولت أن أقترب من أبي لكن لم تتحرك قدماي، فصرخت على أبي: أتريد مني أن أفعل لك شيئًا؟ عندها نظر إليَّ وقال: نعم يا ولدي، في غرفتي عند سريري هناك ورقة نَفِّذ ما فيها. ثم بعد ذلك اختفى هو وعمتي، واختفى معهما عفريتهما، ولم يظهر بعد ذلك.

وهل وجدت الورقة؟

في الحقيقة، إنني لم أُخْبر أحدًا من إخوتي أو أهلي؛ لأنني لو فعلت ذلك لن يُصدِّقنـي أحد، ولهم الحق فـي ذلك، ومن أجل هذا فضَّلتُ الصمت، وبعد انتهاء الجنـازة دخلت إلى غرفة والدي، وأخذتُ أبحث عند السـرير، وكانت المفاجأة؛ لقـد عثـرت على ورقة بخط يد والدي، وكان فيها اسـم أحد أصدقائه من التجار، وبجانـب الاسـم مبلغ دَيْـن كان لصاحب الاسـم على والـدي، وبالطبع فهمت الرسـالة، وذهبتُ إلى الرجل، ودفعتُ إليه المبلغ، لكنه أصر على عدم أخذه، إلا أنني أقنعته أنها وصية والدي إليه قبل وفاته.

- وعمتك لم تظهر لك بعد ذلك؟

- لا أحد غيري، ولم أسمع بعد ذلك أن أحدًا سمع شيئًا في شقتها، وبعد ذلك امتنعت عن قراءة كتاب (شمس المعارف الكبرى) نهائيًّا من أجل وصية أبي.

والآن يجب أن أنصرف، لقد اقترب أذان الفجر، وعليّ أن أنصرف.

وقبل أن يرد عادل فتح الباب وخرج.

السـاعة التاسعة صباحًا. يرن جرس المنبه، يسـتيقظ عادل وينزل إلى عمله، وعندما يصل يجد عم موسى يقف على الباب وهو يبتسم: صباح الخير يا دكتور عادل.

- صباح الخير يا عم موسى، أخبارك إيه؟

- الحمد الله يا دكتور، أخبار الشغل إيه؟

يضحك موسى: الشغل كتير والثلاجات كلها جثث.

ينصرف عادل إلى داخل الممر ثم يدخل غرفة التشـريح، يجد شـخصًا داخل الغرفة.

- عادل، أنت مين؟

-صباح الخير يا دكتور، أنا هاني زميلك الجديد.

- أهــلًا يا دكتور، أنت متخرج جديد يعني من ســنة تخصــص أمراض، وعايز حضرتك تعرفني كل حاجة في المشرحة.

- عــادل: طيب يا دكتور هاني أنت اتعرفت على الناس في المصلحة؟ قصدي الزملاء مش الجثث!!

- أكيد أكيد اتعرفت على بعض الناس، والبركة فيك يا دكتور عادل.

عــادل: طيب يا دكتور، إحنا نبدأ الأول بتشــريح الخارجي، وبعد كده الجثث المحتاجة إلى تشريح داخلي.

- وهو كذلك يا دكتور عادل.

يدخل المساعد ومعه العربة التي تحمل جثة. ويكشف عن الغطاء فإذا بفتاة في العشرينيات، وعليها فســتان زفاف وحروق شوَّهت وجهها، ولولا الفستان ما عرفت أنها جثة لفتاة.

ينظر عادل إليها نظرة حزن وشفقة، ويطَّلع على الأوراق التي معها، إنها فتاة في ســن الرابعة والعشرين، تُوفِّيت في ليلة زفافها بسبب حريق شب في الفرح، والشيء الغريب أنها الوحيدة التي تُوفيت بل هي الوحيدة التي شبَّ فيها الحريق.

بــدأ العمل على جثة الفتاة بالتشــريح الخارجي؛ لأن ســبب الوفاة معروف؛ حريق من الدرجة الثالثة، أدى إلى الوفاة.

بعد ذلك انصرف عادل إلى مصر الجديدة حتى يقابل هالة ويذهبا إلى منزل مريم. يصل وعند البوابــة الحديدية يجد الدكتورة هالة في انتظاره، يدخل معها من البوابة وتُسلِّم هي على صادق الحارس وتسأله: الست الكبيرة موجودة؟

- أيــوه يا دكتورة وهي فــي انتظارك، يقول ذلك وهو ينظــر إلى عادل نظرةَ شَكٍّ وارتياب.

بعــد البوابة كان يوجد ممر، كان الممر ذا مُنحَنيات وارتفاعات، وعلى جانبيه توجد الأزهار والحشــائش الخضراء، وعلى أحد هذه الجوانب ذات الانحناء بِرْكة ماء عكست أضواء الكشَّافات، عليها وجه القمر وكأنَّ النجوم سقطت على الأرض فأصبحت جوهرة تبعث بضيائها في كل المكان، كان المكان يظهر الثراء الفاحش لهــذه العائلة مع هــذه اللعنة التي حلَّت بها وبأولادها، ثــم بعد ذلك وصلا إلى مدخل الســرايا وعلى بابها أربع درجات من السلالم الرخام، ثم باب خشبي كبير، وقبل أن يلمس عادل الباب يفتح من تلقاء نفسه، وتدخل هالة إلى الداخل، وعند ذلك تسمع صوت سيدة عجوز تقول: اتفضلي يا هالة يا بنتي. ثم بعد ذلك تسمع صوت بكاء الســيدة العجوز وهي تقول: بنتي مريــم ماتت يا هالة! بنتي ماتت! وقبل أن تجيب تتذكر عادل الذي كان ما زال واقفًا أمام الباب.. ده عادل.. قصدي الدكتور عادل يا طانط.

- اتفضل يا بني، البيت بيتك.

يدخل ويجلس قريبًا من الســيدة وهو يســأل: ممكن أعرف أنتِ عايشة هنا لوحدك إزاي؟

- مين قال أنا عايشه هنا وحيدة؟ بالعكس أنا معايا أهل البيت كلهم.

يتساءل عادل: كيف ذلك؟!

دي حكاية طويلة أوي يا بني ومســيرك هتعرفها. وتقطع هالة الحديث قائلة: المهم أنك بخير وسلام.

يجلــس عادل ويتأمل المنزل جيدًا ويُلقي نظــرة إلى غرفة المكتب التي كان يجلس فيها إيهاب زوج مريم، والتي أنهى فيها حياته، وما هي إلا لحظات وتظهر أمامــه خادمة وفــي يدها ورقة، وتفتح باب المكتب، وبعد دقائق يســمع صوت طلْــق ناري خارجًا من الغرفة، وتنــزل مريم التي يعرفها جيدًا ومعها بعض الخَدَم مــن على الــدرج وهم يهرولون إلــى غرفة المكتب، كل ذلك وهــو لا يتكلم ولا يستطيع أن يُحرِّك بصره أو مكانة، ثم يسمع صوت هالة وهي تنادي عليه: جاهز يا عادل للانصراف؟!

يتحــرك دون أن يفتح فمــه إلى الباب، وينزل الدَّرج الــذي أمام الباب وهي تُنادي عليه بينما هو لا يتوقف حتى خرج من البوابة، وفي أول ســيارة تاكســي يركب وينطلق إلى شقته.

ترجــع هالــة إلى منزلهــا الواقع بحي المعادي شــارع ٩. كانت تقع شــقتها بالطابــق الثاني، وتعيش فيها مع والدتها المريضة بعد أن تُوفِّي والدها وهي في عمر الثامنة، تصعد إلى غرفتها وتستريح على كرسي بجانب السرير، وتفتح درج الكومدينــو، وتُخرج صورة لها مع مريم وهما فــي كلية الطب ثم ترجع بالذاكرة وتتذكــر ضحكات مريم عندما كانــت معها في رحلة إلى القناطــر الخيرية، لقد كانت مريم أعز صديقاتها في هذه الدنيا.

أخذت تنظر إلى الصورة وهي تبكي بكاءً شــديدًا وتقول: لقد افتقدتكِ كثيرًا يا صديقتي العزيزة!

ثم تســمع صوت دقٍّ على باب الغرفة، إنها تعــرف هذه الطريقة في الطرق علــى الباب، لكنهــا لا تريد أن تفكر في هذا، أو الحقيقــة إنها لا تريد أن تُصدِّق

ذلـك، يُفتح جزءٌ من الباب وتدخل معه رياح شـديدة، كل هذا وهي جالسـة لا تُحَرِّك ساكنًا، ولا ترفع نظرها من على الباب.

وفي الجهة الأخرى يصل عادل إلى منزله، ويدخل من باب العمارة فيجد رجلًا يقف قرب المصعد يقترب منه، إنه يوسف البواب، ولكن تغير وجهه من المرض.

عادل: إزيك يا راجل! حمدالله على السلامة.

يوسـف: الله يسـلمك يا دكتور عادل، أنا بخير الحمد لله، كانت فترة صعبة لكن ربنا كبير. المهم إن حضرتك تكون بخير.

- أنا الحمد لله يا يوسف، المهم المصعد شغَّال؟

- لا يا دكتور عادل، العمال بيحاولوا يصلحوه على بُكرة يكون شغَّال.

عادل: على العموم أنا اتعودت على السلالم.

يصعد عادل السلم، ويبدأ في العد؛ واحد، اثنان، ثلاثة..

يصل إلى شـقته في الدور السـابع، يضع المفتاح، وكانت المفاجأة أنه وجد الباب مفتوحًا.

دفـع البـاب بيده ثم دخل وأغلقـه.. دخل إلى غرفته وقبـل أن يجلس على السرير وجد على طرف السرير سبحة وكتابًا. مدَّ يده وأمسك السبحة وقلَّب فيها، إنها هي، إنه يعرفها جيدًا.

يُمسـك الكتاب ويقرأ العنوان (شمس المعارف الكبرى)؛ إذ لا يوجد شك الآن في أنها أشياء تخص المعلم تهامي، ولكن كيف وصلت إلى هنا في غرفتي؟ ومَن الـذي فتح البـاب؟ أنا متأكد أنني قد أغلقت الباب عنـد خروجي في الصباح. يا الله! ما هذا الذي يحدث لي؟!

كانت هالة ما زالت جالسة في مكانها عندما فُتح جزءٌ من الباب ثم بدأ يظهر خيال شخص خلف هذا الجزء من الباب مما جعلها تقترب من باب الغرفة وتضع يدها على أُكْرة الباب، وتسحبها بكل قوتها، وكانت المفاجأة؛ حيث كان خلف الباب شبح أعز أصدقائها مريم.

ترجع هالة إلى الخلف وقد تجمَّدت، وتوقف بها الزمن، ناطقة بكلمة واحدة: مريم.. مريم!

تتسارع الأحداثُ في منزل عادل هو الآخر بعد أن وجد هذه الأشياء التي تخص المعلم تهامي، يقترب من باب الشقة حتى ينزل لكي يبحث عن المعلم تهامي، ولكن قبل أن يتحرك من مكانه يجد الأرض من تحته تهتز ثم يسمع صوت أشخاص كثيرة جدًّا مع أصوات طبل وزغاريد في الصالة. يخرج من باب الغرفة مغمض العينين، وعندما يفتح عينيه يجد الشقة أصبحت قاعة أفراح وهو يقف في وسط القاعة، وهناك أشخاص كثيرون وهو لا يعرف أحدًا منهم، والجميع يقترب من شخص يرتدي بدلة سوداء ويُسلِّمون عليه مُهنِّئين ومباركين.

يُدرك عادل أن هذا الشخص هو العريس وصاحب الزفاف، ولكن لا يفهم ما يحدث، ثم تقترب منه فتاة في ملابس الزفاف، إنها العروسة التي كانت جثتها صباحًا في المشرحة محروقة. الآن قد تذكر عادل أن شبح العروسة يقترب منه، ثم تدخل إلى باب في الحائط وتتركه مفتوحًا، فيفهم أنها تريده أن يدخل، وعندما يقترب ويدخل إلى الغرفة يجد الفتاة تجلس بجوار سرير عليه بعض ملابسها، إنها غرفتها التي تربَّت فيها. يقف ويشاهد وكأنها تعرض عليه شريطًا من فيلم، تقف الفتاة وهي تمسك في يدها ورقة أو خطابًا تقرأه وهي تبكي ثم تدخل عليها

إحدى صديقاتها وهي تقول: يا سـلوى، أنتِ لسـه محتفظة بهذا الخطاب؟! وهي تـرد: أنـا آخر مرة أفتحه فيها، لكن تفتكري لـو كان عايش كان ممكن أتجوز حد تانـي غيـره؟ أكيد لا، آخر مـرة كان معايا قبل النهاية. قال: أنـا عمري ما هأبعد عنـك، ولو حصـل والنصيب اتغير أوعدك أن أحضر زفافـك حتى لو أصبحت في عداد الموتى!! علشان كده فتحت الخطاب الأخير، تفتكري إنه ممكن يكون هنا؟

صديقتها: أنتِ مجنونة يا سـلوى!! هو فيه إنسان بيموت ممكن يرجع تاني؟! كفاية كده يا سلوى، وعيشـي حياتك الجديدة، وربنا يُوفقك مع زوجك وتعيشي حياة سعيدة، والحي أبقى من الميت.

ثم تُخرج صديقتها وتجلس هي، ويشاهد عادل شابًّا جالسًا بالقرب منها وهو يبكي، وشـعره يتسـاقط، ويبدو أنه مريض بمرض مسـتعصى. كان الشاب ينظر إلى سـلوى العروسة نظرات حب شـديدة جدًّا ولكن لا يستطيع أن يتكلم. وبعد لحظـات يدخـل طفل صغير ومعه شـمعة وهو ينادي: «أبلة.. أبلة سـلوى». ثم يقترب منها وهي جالسـة على الكرسي شريدة، ويسـقط الطفل بعد أن تعثرت قدماه في السـجادة، وتقع من يده الشـمعة، وتشـتعل النار في فستان الزفاف وجسد العروسة التي تصرخ والنار تزداد اشتعالًا؛ بسبب خامات تصنيع الفستان، وكان الجميع في الخارج لا يسمعون صرخاتها من شدة ارتفاع أصوات الموسيقى والضوضـاء. خرجت وهي مشـتعلة من الغرفـة ثم تخبطت وسـقطت، وتحوَّل الضحك إلى بكاء، وأسـرع الجميع إليها ولكن بعد أن تمكَّنت منها النار وانتشرت في جميع جسـدها. وعندما تسقط سـلوى على الأرض يُمسك الشاب الذي كان يجلس في غرفتها بيدها، وتخرج معه من الحائط، وتختفي، ويعود كل شيء مثلما

كان عليه من قبل، ويجد عادل نفســه واقفًا في صالة شــقته كأنه عائد من رحلة من عالم الأموات إلى شــقته. في الشقة المجاورة يسكن مصطفى وزوجته، وهو أخ مــن ثلاثة إخــوة، أحدهم لا يُنجب وهو مصطفى، والآخــر أنجب ثلاثة أولاد، ولكن من كثرة الرفاهية التي تُقدمها الحكومة. وبعد أن فشلت في السيطرة على مرض الفيروس الذي ودَّع أيضًا من أجله مصطفى أخًا شابًّا من خِيرة شباب الحي، ولكن الرفاهية هذه من نوع آخر؛ فهي انقطاع التيار الكهربائي باســتمرار، حيث قرروا شراء آلة لتوليد الكهرباء للقُدْرة على العيش الكريم، وبالفعل اشتروا ماكينة لتوليد الكهرباء، وكالعادة التيار مقطوع، فبدءوا بتشغيل الآلة، وخلدوا جميعًا إلى النوم ولكن هذه المرة ناموا إلى الأبد بســبب عادم المولد؛ أســرة بأكملها مكونة من أب وثلاثة أولاد ذكور، أما الأم ففي العناية المركزة بين الحياة والموت.

ســؤال: ما هو شــعور الأم لو كُتِبَ لها النجاة بعد فقد زوجها وأولادها؟! وما هي الكلمات التي تنطق بها؟!

كلمــة مصطفى الذي لا يُنجب والذي أبكــى الحضور جميعًا في الجنازة وهو يقول: «ليه يا رب أخذت التلاتة؟! كنت سيبلي واحد أربِّيه!». هذه الكلمة، وهذا المشهد الذي لم يستطع عادل أن يخرجه من ذاكرته مع طول المدة التي مرَّت على هذا اليوم؛ وذلك بسبب ما حدث بعد ذلك لأسرة مصطفى؛ حيث دخل الأخ الذي فقد كل شــيء بعد وفاة أخيه في تيار الإدمان والمرض النفسي، ووُضِع بعد ذلك في مصحة للعلاج النفســي والإدمان، إنها الحيــاة والقَدَر. هكذا هي الأيام عندما تُعطــي ظهرها تتغير الوجوه، وتتحوَّل الابتســامات إلى بكاء في لحظات، ويتذكر عادل كلمات أمه عندما كانت تقول في دعائها: «يا رب، اكفينا شــر المستخبي».

عندما يتملك اليأس من الإنســان والقُنوط وانقطاع الأمل، وإحباطٌ يصيب الروحَ والعقلَ معًا، فيفقد الإنسان الأمل في إمكانية تغيُّر الأحوال والأوضاع والأمور من حولــه! قد يواجه الْمَرءُ مواقف فرديةً ســلبيةً من بعض الناس، فيتخذ منها موقفًا سلبيًّا، ثم يُعمِّم ذلك على كل ما يواجهه في حياته، وكأنَّ الناس كلهم بعضهم مثل بعض؛ أي: حين ييأس الشخص من مجموعةٍ أو شخصٍ آخر لموقفٍ سلبي بدر منه فإنه يعمِّم يأسه هذا على مواقفه من كل الناس الذين يعيش معهم أو يلتقي بهم، وبذلك يتخذ موقفًا عامًّا لابتلائه بموقفٍ خاص. كل هذا لم يظهر له أو يحسه من قبل حتى لم يفكر في أن يسأل عن جاره مصطفى طوال هذه الأيام، ولكن عندما سقط في هذا الخوف والحزن عاد إلى إنسانيته، وتذكر كل ما كان يفعل في حياته كلهــا، وتذكر كل ما كان يفعل مــن أخطاء لا يعرف عنها أحد غير الله. وبدأ يُعيد كل حِساباته ونظرته إلى الحياة. والحقيقة أنه لم يكن مؤمنًا إلا بما هو محسوس أو ملموس فقط، ولم يكن يعترف أبدًا بأنه غير مؤمن.. حتى هو نفســه لم يعلم أنه لم يكن مؤمنًا إلا الآن.

(3)
قتيل في العمارة

رجل يســكن في آخر دور، اســتيقظ الجيران في العمارة على صراخه قبل أن يُلقِي بنفســه من الشباك. يستيقظ عادل وينزل إلى الأسفل فيجد الشارع مكتظًّا بالناس، وفي الوســط جســد جاره فاروق إســماعيل؛ هذا الطبيب الذي لم يكن مختلطًــا مع أحد في العمارة كلها حتى عادل الذي لم يعرف عنه غير أنه مُصاب بضيق الشــرايين، ويعيش وحيدًا، ومــا هي إلا لحظات وتأتي الشــرطة والنيابة، ويُحمل الجســد إلى المشــرحة، وحين نظر الضابط إلى العمارة التي يســكن بها القتيــل خُيِّلَ إليه أنها قبر يخرج منه الشــياطين، ثم رجع بنظره إلى عادل وقال: هل أنت من أهل القتيل؟ هزَّ رأسه وقال: لا، أنا جاره.

الضابط: وهل تعرف القتيل جيدًا؟

- لا، القتيل لم يكن اجتماعيًّا، ثم أنا لم أســكن هنا إلا مِنْ بضع ســنين فقط، ولكن كل ما أعرفه أن الحياة ليست عادِلة بما يكفي، ولعله فعل ذلك بعد أن فَقَدَ كل أحلامه، ولا أعرف أكثر من ذلك.

ينصرف الضابط وفي عينيه نظرة شــك وريب من كلمات عادل ثم يعود هو إلى داخل العمارة.

وعلى الســلم يجد شبح فاروق يشــير إليه بأن يأتي خلفه يصعد السلم حتى يصل إلى باب الشــقة التي انتحر منها فاروق والتي وضعت النيابة عليها الشــمع الأحمر. يمر الشــبح مِن الباب إلى الداخل ثم يخرج وفي يده حزمة من الأوراق،

لا يتكلـم ولا ينظر إلى عـادل، كل ما فعله أنه أعطى هذه الأوراق إلى عادل، ثم عاد مرة أخرى إلى داخل الشـقة. لم يُعلِّق عادل بشيء وكأنه تعود على الأشباح ينزل إلى غرفته ويفتح الأوراق ثم يقرأ مذكرات دكتور ميت.

أرجو مَنْ يقع في يده هذه المذكرات أن يقرأها كاملة حتى يعلم لماذا فعلتُ هذا، كل ما سأرويه في هذه القصة هو واقعي وليس من وحْي الخيال.

نعـم، إنه هو العالـم الآخر الذي لا يحب مقابلته أحـد، لقد ذهبت إليه من أكثر من عشرة أعوام.

المـوت هو الحقيقـة الوحيدة التي يؤمن بها كُلُّ البشـر، وعلـى الرغم من هـذا الإجماع الشـامل فإن وقوعه لا يـزال دائمًا حدثًا مُزلـزلًا ثقيل الوطأة على كل النفوس؛ لأنه عالم لا يعلم أحد عنه شـيئًا، ولأن لا أحد عاد من الموت حتى يخبرنا ماذا هناك أو ماذا حَدَث له مع كل المحاولات على مرِّ السنين ومحاولات الاتصـال بالعالم الآخر لا يوجد جوابٌ كافٍ عن المـوت والعالم الآخر. وبما أني طبيب كان الموت صديقًا لي في عملي، وكثيرًا ما تسـاءلت: ما هو عملي وأنا لا أملـك أن أنقذ أحدًا على طاولتي في غرفة العمليات عندما يقتحم الموت الغرفة ويأخذ الأرواح ويترك الأجساد ويرحل وأنا لا أملك فعل شيء؟! وكان السؤال الذي لا يفـارق عقلي هو: ماذا يحـدث بعد الموت؟ وأين يذهب الميت؟ وما هو هذا العالم الآخر الذي يذهب إليه؟ وكثيرًا ما وقفت أمام الجثث أسـأل هذه الأسئلة، وتمنيت أن يرجع أحد من الموت حتى يجيب عن هذه الأسـئلة، ولو كنت أعرف ما يخفيه القدَر ما فعلت.

وجـاء اليوم الذي غيَّر حياتي، يبدأ مـع عودتي من عملي ذات ليلة، وتناولي

عشائي المُعْتاد، وذهابي في النوم العميق الذي لم أستيقظ منه إلا بعدها بخمسة أيـام، حيث أُصيبت بغيبوبة وفي صباح اليوم الآتـي، قرر الأطباء على إثرها أني ميِّت، ويجب أن أذهب إلى الطب الشرعي ولكن رفض أهلي وزملائي في العمل ذلـك وقالوا لطبيب الصحة: إنه زميل مهنة، ولا يصـح هذا، وإكرام الميت دفنه. وعلى إثر ذلك استُخرجت لي شهادة الوفاة وكذلك تصريح الدفن.

صُلِّـي عليَّ صلاة الجنـازة، ووري جثماني الثرى بجـوار جثمان والدي وأخي العزيز، وأقام أهلي سـرادقًا لتلقي العزاء وسـط حالة من الحزن الشديد ومراسم الحداد القاسية.

وبعد ثلاثة أيام من دفني ووجودي بالقبر استيقظتُ من (موتي) أو غيبوبتي كي أجد نفسـي مُحاطًا بالظلام مُرتديًا زيًّا من قطعة واحدة ويدي مُكتفة، وفمي وأنفي مدعمان بكمية من القطن. حاولت أن أفهم وأعرف أين أنا؟ وماذا حَدَثَ؟! وكل ما أتذكر هو أني قد وضعت رأسـي ونمتُ بعد العشـاء، كان المكان حالك الظلام، حاولتُ أتلمس بعد أن نزعت ذراعي، كان القطن في كل جسدي، حاولت النهوض في وسـط هذا الظلام حتى لمسـت يدي جمجمة أحد الميتين بجواري، هنا أعلنت الحقيقة عن نفسها أنا ميت وهذا المكان ما هو إلّا قبري.

هل أنا الآن في العالم الآخر؟!

أخـذتُ في الصراخ أحاول الخروج من القبر، أبحث في هذا الظلام عن اتجاه السـلالم المؤدية إلى باب المدافن إلا أنَّ شيئًا ما أو شخصًا ما أمسك بقدمي وأنا في هذا الظلام، لا أعرف الليل من النهار. كل هذا لم يكن الأسوأ في القصة ولكن هـذه الأصوات التي أصبحت تأتي مـن كل مكان في القبر والقبور الأخرى وكأنها

شـفرة لا يعرفها إلا الأموات ومَنْ يسـكنونَ العالم الآخر، وعلى ذلك جلست على السلالم المؤدية إلى باب المدفن يومين أصرخ على أمل أن يسمعني أحد وينقذني.

وسـمعني أحد سـاكني القبور، فأحضر التربي الذي أبلغ الشرطة، وكان يظن أنني أحد العفاريت.

وعندما فتح القبر ووجدني جالسًـا بكفني على السـلالم صرخ وأُصيبَ بأزمة قلبيـة ومات على الفور، خرجت وأنا لا أسـتطيع الكلام أو المشـي على قدمي، ونُقِلت إلى المستشفى وفور علم والدتي بالواقعة توقف قلبها من الفرحة، وماتت هـي الأخرى. وعلى هـذا كان ثمن رجوعي إلى الحياة هو مـوت أمي والتُّربي!! وبعد ذلك فإن ما حَدَث لي في المستقبل كان غير ما مضى، وظل هذا اليوم هو علامة فارقة بين حياتي قبل وبعد هذا اليوم.

بعـد دفن أمـي رحمها الله، وما حـدث في يوم الجنازة مـن الحضور كانت الإشارة لما سوف يحدث بعد، حيث بدأ الناس بالتعامل معي على نوعين؛ النوع الأول هو النظر إليَّ بعين الشـؤم، والعين الثانية نظرة الريبة والخوف والارتياب من شـخص قد دُفِن وسط الأموات، أما البعض الآخر من الناس فكان الفضول هو كل ما يشـغل فكره، وفي رأسـهم أسـئلة ممنوع الإجابة عنها: ماذا رأيت؟ وماذا سـمعتَ؟ وهل رأيت شيئًا من الحقيقة الوحيدة التي نعرفها عن الموت؟! ومنهم من ذهب إلى أبعد من هذا وقال: هل رأيت أن هناك جنة أو نارًا أو ملائكة أو أي شيء من الغيبيات؟! كنت تارة لا أنظر إليهم أو أتحدث، وتارة أرفع صوتي، ومع كل هـذا كان هناك من يتهجَّم عليَّ، وكنت أصرخ عليهم: اتركوني وشـأني، لماذا تهينوني؟! لماذا تهينوني؟ ماذا فعلت؟!

في صباح اليوم الآخر، وفي أحد الشــوارع المجاورة بجانب المشــرحة يوجد مقهى بلدي قديم وتاريخي، كان المبنى مُستخدمًا منذ القرن التاسع عشر. وهناك فرق كبير بين المقهى البلدي و(الكافي شــوب)؛ في المقهى البلدي يوجد جميع أطياف الشعب من المُدرِّس والموظف والعامل والعاطل، الجميع يجمعهم ضيق الحالة الاقتصادية، وبالطبع يوجد هناك مَنْ يفعل أي شــيء من أجل حفنة -ولو قليلة- من المال، وعلى أحد جوانب المقهى يجلس مجموعة من الشــباب، حكى شــاب منهم تجربة مريرة مرَّ بها، لا يتمكن من تجاوزها ولا تجاهل أحداثها حتى يومنــا هــذا، تجربة أرعبته حرفيًّــا لدرجة أنه باتَ لديه ذُعر مــن أحداث حياتية طبيعيــة غير أنها تُذكِّره بأحداث تجربته مــع عالم الأموات والأماكن التي يحفظ بها جثث الموتى.

فــي يوم من الأيــام كان الظلام يُخيِّم على كامل الأرجــاء، وكما اعتدتُ كنتُ عائدًا إلى المنزل، ولكنني ســلكتُ طريقًا بأحد الشوارع التي كانت مُقرَّبة لقلبي منذ الصغر، فهذا الطريق سلكناه طوال عمر بأكمله مع أصدقاء طفولتي.

عندما كُنَّا صغارًا كانت اللعبة المفضلة لديَّ ولدى أصدقائي جميعًا هي سِباق السرعة، وكان هذا الشارع تحديدًا مكاننا وملاذنا الوحيد لذلك السباق والاستمتاع به بعيدًا عن عيون الآباء والأمهات، كنا نُطلق على الشــارع اسم شارع العفريت، حيث إنه كان ممتلئًا بالأشــجار الكبيرة والعجوزة ذات الأوراق المتســاقطة على الأرض، وغالبًا ما يسوده الظلام دون إضاءة الأنوار بخلاف الشوارع الأخرى التي بجواره.

يوم الحادثة كنتُ أريد اكتشاف الأشياء الغامضة بالشارع؛ كان الوقت متأخرًا للغايــة، وبينما كنتُ أســير بالشــارع شــعرت بأحد الكلاب يركــض بقوة خلفي،

فالتفت إليه لأرى وأتبين الأمر، ولكنني لم أجد أحدًا على الإطلاق، عاودت النظر إلى الأمام، ولكنني هممتُ بالسير رغبةً في إنهاء الطريق والذي باتَ -ولأول مرة في حياتي- طويلًا ومريبًا.

بمجـرد أن نظرت إلى الأمام لاحظتُ وتأكدتُ وجـود صوت خطوات تقترب نحوي، التفتت إليها ولكني لم أجد أحدًا، أسرعت في خطواتي، والخطوات خلفي لا تزال تتبعني بهذه المرة، لم أنظر إليها، ولكني نظرتُ إلى بعض السيارات التي كانـت تقف بأحد جانبي الشـارع، وإذا بي أرى بزجاج السـيارة والإضاءة كانت خافتـة ظلًّا وخيـالَ رأس كلب محـاولًا الهجوم عليَّ، ذُهلت مـن هول ما رأيت، وبمجرد أن التفتت إليه وكنت على استعداد تام لمواجهته لم أجدْهُ أيضًا.

ماذا أفعل حينها؟! لم أشعر بحالي إلا وهناك شخص أسود ينقضُّ عليَّ وبيده خشبة كبيرة، ضربني بها فوق رأسي، وإذا بالدماء تسيل على وجهي، عندما انهال عليَّ بهذه الضربة، وبعد أن اسـتجمعت شـيئًا من القوة ذهبت إلى المستشفى الموجـود بذلك الشـارع، كان للمستشـفى مدخـل خلفي وباب حديـد مُمتلئ بالأشـجار القديمة لدرجة أنهـا تغطي عليه بالكامل، وأمام هـذا المدخل يوجد فرد الحراسـة من الشـرطة والذي لُمْتُهُ وعاتبتُه كثيرًا؛ حيث إنه كان يشـاهدني ويراني عندما حَدَثَتْ معي هذه الواقعة، ولكنه تجاهلني، لم يفعل معي إلا شيئًا واحدًا، اعتلت وجهه ابتسـامة عريضة، ولكنه لـم يتفوه معي بكلمة واحدة على الإطـلاق، على الرغم من حديثـي الطويل معه فإني انفعلت عليه لدرجة أنني سـببته ببعض الكلمات.

أكملت طريقي وعملت اللازم للجُرح الذي برأسـي. لقـد أُصِبْت إثر الضربة

بجـرح طويل مما جعـل الدكتور يعمل على خياطة الجـرح، بعدما أنهيت اللازم خرجت من المستشفى.

وبعـد مرور فترة مـن الوقت وقع حادث مع صديقـي، وأراد الذهاب لعلاج الجروح من إثر الحادث، أخذتُه ووصلتُ به إلى المستشـفى في الشـارع نفسه، وعند الباب الخلفي للمستشفى وجدتُ ما أدهشني؛ لقد طغى على الباب الصدأ، وأسدلت الأشـجار عليه، أخبرته قائلًا: «لقد ضُرِبت هنا، ودخلت المستشفى من هذا الباب».

ذهـل صديقي جـدًّا وقـال: «أمتأكد من أنـك دخلت المستشـفى من هذا الباب؟!».

أخبرتـه بكل ثقة ويقين: «نعم، لقد دخلت من هنا، أقسـم لك بأنني دخلتها من هذا الباب».

دخلنا المستشـفى مِن الباب الرئيسـي، صَعِدْنا الى غرفـه الطبيب وأعلمته وصديقي بالأمر، في البداية سألني الطبيب: «ما بك يا بُني، وماذا تريد؟!».

أخبرته بأنني حضرت منذ بضعة أيام بسـبب حـادث، وأنه جرى عمل اللازم معي، ولكنني عندما دخلت للمستشـفى دخلتُ من البـاب الخلفي. في البداية أخرج مدير المستشـفى أوراقًـا أثبتت مجيئي بنفس الوقت الـذي ذكرتُه فعليًّا، وبعدها أصرَّ على الذهاب معي والتأكد من الباب الذي دخلت منه شخصيًّا.

أول مـا أريته الباب الـذي دخلتُ منه، أخبرني قائـلًا: «أتعلم أن هذا الباب مغلق منذ خمسـة وعشـرين عامًا؟! إنه الباب الخاص بمغسلة الموتى، ومنه كُنَّا نُخرج الموتى، وبعد تلقي الكثير من الشكاوى من السكان بجواره بسبب صرخات أهالي الأموات قُمْنا بغلقه، والجثث بِتنا نخرجها من الباب الرئيسي».

(4)
العالم الآخر

العالم الآخر ليس له إلا بوابة واحدة فقط للدخول، ومن يَدْخُل لا يخرج أبدًا، مَنْ يراهم ويكلمهم يدفع الثمن غاليًا؛ يفقد عقله أو نفسه أو شخصًا غاليًا عليه.

هــذا ما كان مكتوبًا في أحد جدران غرفة الدكتور الميت، ولكن بجوار قطعة من الأثاث الخشــبي القديم يوجد بعض المجــلات والجرائد القديمة التي تحمل صورًا للقاءات مع الدكتــور وزوجته التي كانت بعض تصريحاتها تُثير الرأي العام فــي عدد كبيــر من الأماكن، وخصوصًا عندما اختفتْ مــن عام، ومنذ هذا الوقت والدكتور فاروق يعيش مأســاة إنســانية، فقد أصبح يعاني هلاوس، ويتحدث مع شــبح زوجته عندما علم أنها ماتــت كان يصرخ، لا، أنا أجلــس معه على الغداء والعشــاء بعد أن تعود مــن العمل كل يوم، ومع كل هــذا كان ينزل كل يوم في نفــس معاد توصيلها إلى العمل، حدث أكثر من هذا أيضًا من أكثر من عام كانت الدكتورة حكمت عبد الحميد تُثير دائمًا جدلًا واســعًا وغموضًا حول ســر اختفاء الدكتورة حكمت العالمة المصرية التي تُعدُّ من أبرز الشــخصيات المصرية والتي أصبحت ضحية الماســونية في جريمة صاعقة وكبيرة وغامضة، ولا أحد يعرف ما حَدَثَ، ومَنْ هو قاتلها؟!

كانت عــادةً ما تُثير الدكتورة حكمت الجــدل بتصريحاتها في أثناء اللقاءات التــي كانت تُجريها عبــر الصحافــة والفيديوهات على النت خاصــة تصريحاتها حول الماســونية، وكشــف رموز الماســونيين على الهواء، حيــث إنها دكتورة في

علم الفيزيـاء، ومن خلال آخر لقاء لها أَدْلَت ببعـض المعلومات، وأفصحت عن الماسـونية، وأن بداية العـام هو عام الانتهاء والإبادة البشـرية. كان كلامها هذا متزامنًا بالفعل مع فيروس قاتل قد بدأ ينتشر سريعًا في العالم ثم وجود واستمرار أيضًا فيروس قاتل. هي مَنْ تحدثت عن هذا الفيروس قبلها بعام، ونتج عنه إبادة وموت العديد، ولكن لم يثبت شيء، أو لم يُوجد أي دليل فعلي لذلك. ومنذ هذا اللقـاء الخاص بها والـذي ظهرت فيه لآخر مرة اختفت تمامًـا عن الأنظار، وبعد مـرور فترة من الزمن وُجِـدت جثة الدكتورة حكمت، وانقلبت وسـائل التواصل الاجتماعي والسوشـيال ميديا رأسًـا على عقب حول هـذه الجريمة القوية التي تشـد الأذهان لمعرفة حقائق وتفاصيل ووقائع هذه الجريمة البشـعة. لكن ظل الدكتور مقتنعًا أن زوجته ما زالت على قيد الحياة، وبعدها لم نسمع عنه الكثير حتى يـوم الحادث؛ فقد كان لا يتحدث كثيرًا بعد هـذا الحادث حتى يوم مقتله هو الآخر؛ وعثرت الشرطة على رسالة بمكتبه مكتوب فيها: «إنهم يتبعونني، إنهم يريدون أن يقتلونني».

على مدخل شـقة هالة تقف زوجـة البواب تُنادي عليهـا، ولا تجيب، وبعد محـاولات كثيرة مع جرس الباب اسـتيقظت هالة مِنْ سـقوطها على الأرض بعد أن ظهر شـبح مريم، والتي في الحقيقة لم تكُن زيارة عادية، ولكن كانت تكليفًا وطلبًا أخيرًا من أعز صديقة لها، كانت رسـالة مفادها أنَّ هناك سرًّا في حياتها لم يكن أحد يعلم عنه شيئًا.

وهـذا السـر يقبع في ممَـرٍّ بحديقة منزلهـا، وعلى هالة إخراج هذا السـر المدفون.

(5)

العجوز

بعـد جولة نهارية طويلة بين شـوارع القاهرة جلس عـادل في أحد محلات وسط البلد حتى يسـتريح، وفيما هو جالس شد انتباهه السيدة العجوز التي قد ظهـرت، وتحدثت معه من بضعة أيام عن مرضه القديم، وعن أشـياء قد تحدث وتُغيِّر حياته.

اقترب سـريعًا منها وقال: أنا أعرفك وأتذكر كلامـك جيدًا، لقد انقلب عالمي رأسًا على عقب بعد أن قابلتك، ولا أعرف ماذا أفعل، لقد تعبتُ مما يحدث وأريد أن أفهم متى ينتهي؟!

نظرت العجوز إليه نظرة غير مفهومة وقالت: كل شـيء بأمر الله، كل شـيء بأمر الله. وتحرّكت وسـط الزحام ثم اختفـت، ووقف عادل وقد أصبح في حيرة أكثر مما كان.

في مسـاء نفس اليوم بعد أن عاد إلى المنـزل دقَّ جرس الباب، كان المعلم تهامي يقف على أول درج بجوار الباب وهو يقول: أنا آسـف يا عادل يا بني، أنا تركت عندك بعض الأشياء.

عادل: ولا يهمك يا حاج تهامي، اتفضل ادخل.

- لا، مرة تانية، العِشا قربت، مرة تانية.

- لو ممكن الكتاب والسبحة! ثم انصرف.

(6)
رسالة من العالم الآخر

«لا يشـعر بالألم الحقيقي إلا من ذاقَ مرارتـه فعليًّا بالحياة، ولا يمكن لأحد منا تخفيف حِدَّة الألم عنه مهما فعل حتى وإن أزهق روحه فداءً لمن يتألم، ولا أصعب من ألم انطفاء الروح، ولا سـيما عندما تكون روحًا بريئة لم تتسـبب في أوجاع لغيرها. ليس من المفترض أن تحمل كل قصة بحياتنا نهاية سـعيدة؛ حيث إنَّ كثيـرًا مـن القصص في الحياة مِنْ حولنا تحمل أسـوأ النهايات حتى مع أناس مظلومين حرفيًّا، ولكنَّ هناك جانبًا لم نرَه بعد وهو جانب الموت؛ الجانب الآخر».

هذا آخِر ما كتبتْ (مريم) على صفحتها الخاصة على إحدى وسـائل التواصل الاجتماعي قبل الحادث.

في سـاحة المنزل كانت تجمع كل كتاباتها الخاصة، وفي الممر أسفل حديقة منزلها تترك رسـائلها الخاصة بعيدًا عن زوجها وأهلها، وكانت مهمة هالة صعبة، كيف تُقنِع أهل مريم بأن تنزل إلى الممر؛ حيث لا يعلم أحد عن هذه الرسائل؟!

في مسـاء اليوم الآخر طلبت هالة من عـادل الذهاب معها إلى منزل مريم، وفـي الطريق شـرحت هالة ما حدث معها في منزلها، وطلْـب مريم النزول إلى الممر الخاص بها.

عنـد دخولهما طلبـت هالة من الحـارث أن يوصلها إلى مدخـل الممر من الحديقـة بعد أن يخبر أهل هالة بهذا الطلـب، وبعد دقائق حضر الحارث ومعه حلقة من المفاتيح، وأشار إليهم بالتحرك معه إلى مدخل الممر.

كان ممرًّا على شــكل أمبوبة دودية، وبوابة على شــكل دائرة، ومقبض قديم، ويبــدأ الممر مــن الحديقة، ويمــر حتى أســفل المنزل وعلى شــكل منحنيات دودية، وعلى جميع الجــدران توجد لوحات وعلامات غريبة بعضها عن الفراعنة والأهرامات، ورســومات عبارة عن أماكن وحضارات قديمة ومنتهية، كان المكان غريبًا ويحمل الكثير من الكآبة النفســية والحــزن مما جعل الوقت يتوقف حتى حدث شــيء غيَّــر الأحداث؛ صورة مُعلَّقــة على الحائط تجمع مريــم والدكتورة حكمت على أحد الشــواطئ، يقتــرب عادل من الصورة حتــى يتأكد، نعم، إنهما صديقتان أو هناك شيء ما يجمعهما.

هالة بصوتٍ عالٍ: الشيء الذي جمعهما أنهما قد قُتِلا بنفس الأسباب، وقتلهما نفس القاتل.

يســتمر عادل في البحث عن أي شيء قد يُفسِّر سبب هذه الصورة، وما هي إلا دقائق حتــى وجد مجموعة من الكتب والخرائط عن مُدن وأماكن قد اختفت مــن الوجود، وقد وضع عليها علامــات من الحِبر الأحمر، وبعض الإشــارات غير المفهومــة من الكلمــات واللغة والحروف غير المعروفــة. يحمل عادل كل هذه الأوراق والكتــب، وينظر إلى هالة ويقول: المســألة أصبحــت أكبر مني ومنك، ونحتاج إلى مَنْ يتدخل معنا حتى نفهم ما يحدث وما هذه اللغة غير المفهومة، ومــا هي العلاقة التي جمعتهما، يجب أن نتحرك في أســرع وقت، هيا بنا نخرج من هذا المكان.

في مســاء اليوم الآخر كان يجلس عادل في البلكونة، وأمامه الأوراق والكتب محاولًا القراءة أو فهم أي شيء: ماذا تريد مريم أن يفهموا؟ أو ما هو السر الخفي

الموجود بين سطور الكتب والأوراق؟! وفجأة يرنُّ جرس الباب، كان الحاج تهامي يقف مثل العادة على أول درج من الباب ينتظر أن يُؤذن له بالدخول.

ينادي عادل بصوت هادئ: اتفضل يا حاج، تعالَ اجلس معي في البلكونة، أنا في أشد الحاجة إليك.

رفـع الحاج تهامي رأسـه وهو يقـول: خير يا عادل مالـك؟! وإيه كل الكتب والأوراق دي؟ ثم ينظر نظرة طويلة بعد أن تقع عينه على اللغة المكتوبة ويقول: أنت بتكتب اللغة السريانية؟!

عادل: السـريانية!! أنا أول مرة أعرف أصلًا الاسـم ده يا حاج تهامي، ممكن تفهِّمني، أنا فعلًا محتاج إلى المساعدة.

تهامـي: يعنـي أنت مش عارف أن السـريانية هـي لُغة الجـن؛ وهي اللغة التي يستخدمها السـحرة والمشعوذون والكهنة للتواصل بسـادة الجن وكبرائهم وزعمائهم حتى ينفذوا ما يطلبه الساحر أو الكاهن بعد أن يُقدِّم لهم القرابين.

عادل: لا، أقسم لك بأنني لا أعرف أي شيء مما تقول.

تهامي: ومن أين لك بكل هذه الأوراق والكتب؟!

عادل: اجلس وأنا سوف أحكي لك كل شيء.

على الجانب الآخر جلسـت (هالة) في مكتبها تبحث على النت عن أسـماء مؤلفـي الكتب التي وجدتها، وبعد فترة من البحـث الطويل، وقبل الفجر بقليل كانت اكتشـفت أن الكتب العشـرة كلها تعود إلى ثلاثة كُتـاب، والمفاجأة أنهم جميعًـا قـد رحلوا عن الحياة عن طريق الانتحار أو القتـل أو الاختفاء، ولم يُعثر عليهم حتى الآن.

فــي منزل عادل كان قد أكمل عادل الحكاية للحــاج تهامي، وطلب أن يفهم عن اللغة الســريانية أو لغة الجن، فبدأ تهامي بســرد المعلومات عن لغات الجن المختلفة، وأن اللغة الســريانية والسومارية هما أشــهر لغات الجن بين السحرة والكهنة، ثم قال: انظر يا عادل يا بني، أنا ســوف أحكي لك قصة عن ســاحر كنتُ أعرفه جيدًا حتــى تعلم مخاطر هذا الطريق، لقد فَقَدَ هذا الرجل أولاده وزوجته في معركة مع عالم الجن.

حكى الرجل هذا الكلام بعد أن تاب الله عليه.

الساحر التائب

قالت لي زوجتي: «كنت أدعو الله كل يوم عند خروجك من المنزل ألا ترجع إلى البيت إلا ميتًا أو تائبًا، وحاولت الانتحار ثلاث مرات لأتخلص من حياتي، وفي معركة الخلاص مع الشياطين فقدتُ ولديَّ وزوجتي وأمي المسكينة».

عشتُ مع الشياطين والجن خمســةً وعشرين عامًا، مارستُ خلالها كل أنواع الســحر. كانت البداية عندما غابت العقيدة عن المنزل وبيت الأسرة، أخي الأكبر كان ســاحرًا، وهو مَنْ عَلَّمني وقد كان على خلاف مع أبي بســبب أعمال السحر، كان أبــي -رحمه الله- رجلًا ملتزمًا يخاف الله، وكان رجُلًا مُســنًّا، لا يســتطيع أن يقــف أمام جبروت أخي، وكنــت البديل عنه في أعمــال الأرض والزراعة، ولكن دائمًا ما كنت أنظر إلى أخي الأكبر؛ فقد كان كثير الســفر ومعه أموال وســيارات ونساء جميلات، والجميع يعمل له ألف حساب. ومع ضعف وغياب حماية الوالد، وضعف العقيدة والإيمان دخلت عالم شــياطين السحر، وكانت رحلة الشقاء بعد وفاة الوالد لتكون أكبر رحلة من المعاصي، وزاد تعلقي بهذا الأمر، فكنت أختلي

بنفســي في كهف وسط صحراء سيوة مع الشياطين. وفي إحدى المرات تعرَّضتُ لحادث سيارة خطير؛ حيث انقلبت السيارة أكثر من مرة، وجلست في المستشفى أكثر مِنْ عام.

بعد ذلك لم أتَّعظ، ســلكتُ طريق التنصيب للســحر، في مقام لأحد الموتى، ومكثتُ في هذا القبر أربعين يومًا حتى أنال -والعياذ بالله- شَــرَفَ لقب ســاحر، وفقدتُ بهذا التنصيب واللقب إنسانيتي، فكنتُ أظن أنني لن أموت، وبعد رحلة التنصيب عُدْتُ إلى منزلي ولكن كانت هناك مفاجأة، لقد

مات أخي الأكبر بسبب شاب ملتزم قد دَخَلَ في مجادلة مع أخي عن السحر وقال لأخي أمام الجميع: إنك ساحر {ولا يفلح الساحر حيث أتى}؛ مما جعل أخي يغضب كثيرًا، وهدَّد الشاب أمام الجميع بالسحر والعقاب، ولكن الشاب كان واثقًا من نفسه ومن إيمانه، وقال: افعلْ ما تشاءُ؛ إن الله سيُبْطِله.

ثم دعا الشــاب على أخي، وما هي إلا أيــام قليلة حتى مات أخي في حادث طائرة، كان قد ســافر إلى إحدى الدول العربية لمقابلة ســاحر آخر، وعند العودة احترقت الطائرة ومعها جثة أخي، وكانت أكثر الجثث حرقًا، ولم يُعرف إلا بسلسلة تحمل رأس شــيطان على شــكل ثور كبير لأدخل بعدها المستشــفى لمدة ثلاثة أشهر، وبعد أن شُفيت حاولت الانتقام منه، وإن نجحت بعد محاولاتي إلا أنها لم تمس هذا الشاب، بعد ذلك لم أستطع التفكير ولا النوم.

وفي أحد الأيام وأنا جالس على الســرير أغلقت عيني وبعدها شــعرت بأنني مِتُّ، ودُفِنت ودخلت القبر، وسألتني الملائكة: مَنْ ربُّك؟ وما دينُك؟ وهلْ صلَّيْتَ؟ وكانــت إجابتي تؤكد كفري بالله، وقمــتُ من النوم أصرخ بأعلى صوتي، وبعدها

بدأت أُفكِّر فيما أفعل، واستعنت بصاحب المنزل الذي كنتُ عنده لأذهب إلى المسجد للصلاة بعد أن اغتسلت واستبدلت ملابسي، ولجأت لأحد علماء الدين الذي أعطاني النصيحة. وبعد فترة عُدْتُ إلى منزلي لتبدأ معركة التوبة مع الشياطين، الذين رفضوا عودتي، وهدَّدوني بالانتقام، ليس في نفسي بل في أولادي وأهلي، واخترت طريق التوبة. وظلت الشياطين تُحاربني في أولادي، وكانت البداية مع ولدي الأصغر؛ فقد غرق في البحر ومات أمام أمه، وجاء بعده الأكبر ومات بمرض نادر، ثم جاء الدور على زوجتي وماتت أيضًا بمرض السرطان، وحاولت معي الشياطين أن أعود إلى السحر والشعوذة ليتركوا أمي العجوز، فَرَفَضَتْ وطلبتْ مني التمسك بالدعوة، وفاضتْ روحها أيضًا رحمها الله.

وهنا دمعت عيون عادل من قصة هذا الرجل التائب، وطلب من الحاج تهامي أن يطلب من هذا الرجل المساعدة. فأجاب الحاج تهامي: سوف أحاول معه، ثم انصرف.

في الصباح يستيقظ عادل على تليفون من الدكتور محمود، يُبلغ عادل أن الدكتور درويش يريد أن يتحدث معه اليوم في أمر مهم وضروري بمكتبه.

وما هي إلا دقائق ويرن جرس الباب، كانت الدكتورة هالة هي الزائرة، هذه المرة، وعند فتح الباب تدخل مُسْرعة جدًّا إلى الداخل مرتعشة ونظراتها غير مستقرة على مكان واحد يسألها عادل: فيه إيه يا دكتورة؟ فيه حاجة حصلت؟! بمجرد أن ينهي عادل السؤال إذا بهالة تنهار وتدخل في نوبة شديدة من هيسترية البكاء.

بعد انتهاء هذه النوبة قالت: كلهم ماتوا.. كلهم ماتوا!

أنا أفهمك جيدًا لكن يجب أن أُحقِّق في الموضوع مليًّا. وعندما حانت العاشرة مساء نزلت إلى صديق أبي رحمه الله، كان يعمل في إحدى المطابع

الخاصـة بدار نشـر وتوزيع للكتب حتى يحاول معرفـة أي معلومات عن الكتب والمؤلفين أو دار النشر.

المطبعـة فـي منطقة الجمالية في شـوارع ضيقة جدًّا يصعـب التحرك فيها بسـيارة، وكان لزامًا علينا التحرك مشـيًا على الأقدام، وفي أحد الشوارع الجانبية يقف مجموعة من الشـباب على مدخل الطريق، نظر أحدهم إلى الدكتورة هالة نظرة أعرفها جيدًا وقبل أن أتحرك أو أنطق بكلمة إذا بصوتٍ أعرفه جيدًا شق هذا الصمـت: يـا عادل، اطلع أنا في انتظارك! بعد هذا النداء تغيَّر وجْهُ هذا الشـاب وأخـد يهمهم بكلام غير مفهوم، ثم نظر إلى عيني مباشـرة وقال: اتفضل والدي في انتظارك.

دخلنا مِنْ مدخل البيت، وكان السيد عمران صديق أبي يقف على أول السلم، وبنظرة قاسـية نظر إلـيَّ ابنه الواقف أمامي حتى تبخـر الولد من أمامي، جلس الرجل على كرسـي زانٍ كبير، وجلسـنا أمامه، وكنتُ أريدُ أن أُخرج أسماء الكتب بسـرعة حتى أنصرف من هذا المكان الضيق؛ فأنا لا أسـتطيع أن أتحمل الأماكن الضيقة أو القذرة؛ لأنني لستُ فأرًا.. على كل حال كان الرجلُ طيبَ القلبِ ويريد المساعدة.

أخرجت الأسـماء وأعطيته الورقة، نظر إليها طويلًا وقال: لا أعرف عنها شيئًا، ولكن اكتملت مهام الطباعة كلها من ناشـر واحد، انظر كلها باسـم الناشـر (دار إنجاز للنشر والتوزيع).

وهل تعرف عنها أي شـيء؟! أخرج الرجل من كرتونة أسفل الطاولة الخشبية مجموعة من الأوراق مُدوَّن بها أسماء دار النشر.

قالت هالة: لقد بحثتُ عنها ولكن لا شــيء موجــود غير أنها قد أُغلقت بعد موت صاحب الدار من عشرين عامًا.

قال عمران -وهذا هو اســم صديق أبــي-: نعم، قد كان هذا، وقد كانت هذه الكتب آخر ما طبَعت الدار، حيث كان آخر كتاب هو (مملكة النواقم والواعرين)، أنا أتذكر هذا الكتاب جيدًا.

نعــم، أتذكر الكاتب قد تقابلتُ معه في المطبعــة الكبيرة، في الفجالة، كان هذا مِن أكثر من أربعين عامًا، كنتُ ما زلتُ شابًّا في العشرينيات، وكنت في بداية مهنــة الطباعة، وتقابلــتُ معه ومع صديق آخر أيضًــا، وكان يتحدث مع صاحب المطبعــة لطباعة أحد الكتب، أظن هو نفس الكتاب (مملكة النواقم والواعرين)، ولكن صاحب الدار قد اعتذر؛ لأن الدار لا تهتم بهذه النوعية من الكتب، وبعدها لم أعرف عنه أو عن الكتاب شيئًا.

ولكن من الممكن أن نبحث عن أي كتاب آخر لهذا الكاتب في أي دار نشــر أخــرى ما زالت موجودة، ونســتطيع أن نعرف منها المعلومــات، وأين يقيم هذا الكاتب.

هالة: للأســف، الكاتب الحســيني الطوخي لم يكتب أي كتاب آخر، هذا هو الكتــاب الموجود باســمه، وعلى ما يبدو أن النســخ المتاحة قليلــة جدًّا أو غير موجودة.

هناك شــيء غير مفهــوم، كل كاتب من هؤلاء الكُتَّاب قد كتــب كتابًا واحدًا فقط، ولم يكتب أي كتاب آخر، وكلهم في مجالات ما وراء الطبيعة أو عن أماكن مفقودة، أو عــن ألغاز غير مفهومة لكن هذا الكتاب هو أكثر الكتب قد وُضعت

عليه علامات وخطوط عريضة تحت بعض الأسـطر والكلمات، والغريب في الأمر أنها من أكثر مِنْ شخص وليست هالة فقط.

- ماذا تقصدين يا هالة؟

- قصدي يا عادل، أنا اطلعت على الكتاب في الطريق، وأنا أعرف خط مريم جيدًا.

- ولكن من السـهل أن نعرف هذا؛ لأن بعض الكلمات تحتها أسماء أشخاص؛ يعني رسائل مُشفَّرة بين قُرَّاء الكتاب؛ شفرة خاصة بهم فقط.

أليس هذا غريبًا يا هالة؟

- وهـو إيه فـي القصة كلها مش غريب؟! من يوم مـا ماتت وأنا حياتي كلها أصبحت غريبة. المهم أنا عايزه أمشي من فضلك من هنا.

يشكر عادل السيد عمران وينصرف إلى الخارج.

القضية

في تمام الساعة العاشرة صباحًا، في مكتب مدير المستشفى جلس عادل في انتظار الدكتور درويش وما هي إلا ثوانٍ حتى سمع صوته:

أهلًا يا عادل.

- أهلًا يا ريس، خير؟!

- انظر يا عادل هناك شيء أريد أن أخبرك به.

- أيوه يا دكتور درويش، أنا معاك، اتفضل، خير إن شاء الله.

- درويش: لا يا عادل للأسف ليس خيرًا، فيه مصيبة!! انظر هل تتذكر المغنية المشهورة (أماني عيسى(؟!

- نعـم، أتذكرها وأتذكر الحادث الغريب الذي حدث لها، وأن الدكتور محمود

هو الذي شرَّح الجثة، وكان سبب الوفاة أزمة قلبية حادة إثر مادة مخدرة تجرعتها في إحدى الحفلات الخاصة بمنزلها، وأعتقد أن أختها وقتها قالت إنها جريمة قتل وليست انتحارًا أو تعاطي مخدرات، وأن أحد أصدقائها من رجال الأعمال هو السبب في كل ما حَدَثَ، ولكن التحليلات كلها كان فيها أثر المخدرات.

- نعم، نعم، هذا ما حدث من ثلاث سنوات، ولكن أُخْرِجت الجثة مرة أخرى مؤخرًا لمعاينتها مجددًا لمعرفة ما حدث إثر تلقيها معلومات جديدة عن رجل الأعمال، وهو الآن رهن التحقيق في قضية مشابهة، واتضح أنه مَنْ خلط المادة المخدرة (الشبو) للضحية في وسط المخدرات الأخرى.

اتضح من خلال فحوصات جنائية أكثر تفصيلًا أُجريت على جثة الحسناء المقتولة أنها اغتُصِبت بعد مقتلها.

- أيوه يا دكتور درويش، لكن التقرير بتاع التشريح لم يكن هناك أي إشارة إلى اغتصاب، والناس كلها شافت التقرير على جميع الصحف؛ لأنها كانت قضية رأي عام وقتها، وحضرتك أشرفت على التشريح بنفسك.

- نعم، نعم.

- وأنا أيضًا أشرفت على النتائج الجديدة وأقول لك: إنها اغتُصِبت بعد عملية التشريح السريري.

- وكيف ذلك؟!

- هذا ما سوف نعرفه أنا وأنت؛ هناك شيء غامض، شيء حدث بعد كتابة التقرير وقبل خروج الجثة، هناك شيء ما حدث هنا داخل ثلاجة المشرحة.

(7)
الساحر التائب

يتلقى عادل اتصالًا من الحاج تهامي بأن (عبد الكريم) الســاحر التائب الذي طلب مقابلته في انتظاره.

بعــد خمس دقائــق كان أمام مدخل العمارة، وعندمــا اقترب من تهامي كان ينظــر إلى عبد الكريم نظرة حائر يبحث عن شــيء أو جواب عن الســؤال الذي يــدور داخل عقله، هل هذا الرجل كان يجالــس مخلوقات الجن وأنا كنت أخاف من أصغر حشرة في البيت؟! كيف كان يتعامل معهم؟ بل كيف كان يستطيع أن يتحدث معهم وأنا أصلًا لا أســتطيع أن أتحــدث عنهم؟! كان اللقاء غريبًا وتدخل تهامي: أنت معانا يا عادل يا بني؟ الشيخ عبدالكريم أول ما طلبت منه أن يحضر في أقرب وقت الراجل قال: النهارده أبقى عندكم.

عادل: أهلًا وسهلًا بحضرتك، اتفضل، اتفضل.

فــي حجرة الجلوس وأمام المكتبة يوجد (بايو أنتيك) يفتح عادل أحد الأدراج الأربعة، ويخرج كتابًا وأوراقًا مكتوبًا عليها بـ(السريانية القديمة).

ينظر الشــيخ عبد الكريم إلى تهامي ويُمســك الأوراق، ثــم ينظر إلى عادل ويقول: ممكن أعرف الحاجة دي تخص مين؟!

علــى الجانب الآخر تجلس هالة في منزلها، تحاول أن تصل إلى أي معلومات عــن الكتب أو المؤلفين، ولكن كان من الصعب الوصول إلى أي معلومات، حيث جميعهــم قد ماتوا مــن فترة طويلة، ولم يســمع عنهم أحد حتــى أنواع الكتب

تُخاطب فئة من الذين يهتمون بكتُب الفلك أو الأماكن المفقودة، والتي سقطت من التاريخ، أو عن العالم الآخر من الجن أو مَنْ يحكم العالم في الخفاء مجموعة من الكتب قد طُبِعَتْ من دار نشـر واحدة وقديمـة وغير معروفة، وعلاوة على هذا كله قد أغلقت من أكثر من خمسة وعشرين عامًا، ولا يوجد أحد من أصحابها على قيد الحياة.

الابن الوحيد الباقي من الورثة يعيش في فرنسـا، هذا الشـيء الوحيد الباقي عن دار النشر.

أما عن الكاتب الآخر (حسـين الطوخي) فلم نصل إلى أي شيء، وفي انتظار أي معلومة.

والكاتب الآخر مهندس تخطيط، وقد سـافر بعد وفاة أهله ومات في أمريكا من عشـرين عامًا، ولم يتزوج، هذا كل ما يُعْرَف عنه بعد البحث على النت وفي جميع الجهات، والكاتب الوحيد من المجموعة الذي ما زال يوجد من كتابه (مدن منسية) نسخ موجودة في أماكن بيع الكتب القديمة. لقد قمت بجولة في جميع أماكن بيع الكتب حتى أسـأل عن أي نسـخ من المجموعة، فلم أجد غير نسـخة وحيدة من كتاب المهندس يوسف محمود (مدن منسية)، وباقي المجموعة ليس لها أي أثر. لكن الشيء الغريب في الموضوع أن دار النشر لم تنشر أي كتاب آخر غير هذه المجموعة من المؤلفين غير كتاب واحد هو (الموتى يهمسـون أحيانًا) باسم الكاتبة سـلوى حسين، وهو آخر عمل طُبِع في المطبعة قبل تاريخ إغلاقها بخمسة أشهر، وليس لها أي كتب أخرى.

هناك شيء غريب؛ فهذه الدار لم تخرج أي أعمال أخرى لغير هؤلاء الكتاب،

ولكل كاتب أخرجت له كتابًا واحدًا فقط، ولا يوجد أي معلومات بعد ذلك عن أي من الكتب أو المؤلفين.

بعد أن انتهى عادل من سرد القصة كاملة من أول يوم ظهور السيدة العجوزة إلـى دخـول ممرٍّ منزل مريم يسـود بعدها صمتٌ لا يسـمع غيـر صوت أبواق السيارات وأصوات المارة في الشارع أسفل البلكونة.

حتى يقطع هذا الصمت سـؤال عبد الكريم وهو يقول: أستاذ عادل، حضرتك تعـرف حاجة عن الكتب دي أو المؤلفين قبل ما تنزل الممر أو تعرف حاجة عن المكتوب فيها علشان أقدر أساعد حضرتك في أسئلة ومحتاج أنك تجاوب عنها؟!

وأهم سـؤال: هل لـك علاقة بعالم الجن من قبل أو فيـه حد من أهلك كان عنده علاقة بهذا العالم؟! وإذا كانت الإجابة نعم، قبل ما تتكلم لا بُدَّ أن أعرف!

ينظر عادل إلى عبد الكريم نظرة المغلوب على كل هذا الأمر:

- لا، أنا لم أعرف أي شـيء عن هذا العالم من قبل، أما السؤال الثاني فنعم، كان جـدي -رحمـه الله- يذهب إلـى العرَّافين، ويحكي عن ظهـور مخلوق من البحر على نصف إنسـانة، والآخر لم يسـتطع أن يعرف ما هو. لقد حكى مرة أنه عنـد العودة مـن أحد المياتم المقامة في القرية الصغيـرة التي كان يعيش فيها وهو شـاب، وعلى جانب الطريق توجد ترع ومصارف تحت ضوء القمر وأصوات الأشجار، وعتمة الطريق، وقبل أن يصل إلى منزله وَجَدَ امرأة جميلة تجلس على حافة الترعـة، وتُلاعب يدها في دائرة من التراب وحولها هالة من الضوء جعلتها مثل اللؤلؤة، ومع انعكاس ضوء القمر على سـطح الماء أصبحت حوريه ليسـت مِنْ نساء الأرض.

اقترب جدي (خليل) -رحمه الله- منها وقد سحرته بجمال شعرها وعيونها ثم نظرت نظرة كشـفت عن أسـنان مِنَ اللؤلؤ، وعندها شق هذا السكون صرخة من جدي الأكبر على ابنه خليل، حيث كان يبعد خطوات من السقوط في الترعة.

ومن هذا اليوم وجدي قد تغيَّر وأصبح يخرج كل يوم ولا يعود إلا قُرب الفجر، ويحضر جلسـات تحضير الجن والعفاريت، وتغيَّرت ملامح جدي كما كان يحكي أبي ويقول بعد أن تزوج جدي وأنجب أبي الوحيد قبل أن يختفي، ولا أحد يعرف أيـن ذهب وقد ترك مجموعة من كُتب السـحر. والغريب أن جدي كان لا يعرف القـراءة ولا الكتابة، وكان يسـتخدم ختم توقيع من النحـاس مكان التوقيع على الأوراق الرسـمية! وبعد اختفاء جدي قام أبـي بحرق جميع الكتب، وباع المنزل ورحـل هو وجدتي إلى القاهرة، ومن هذا اليـوم وانقطعت أي أخبار عن القرية أو منـزل جدي القديم الذي كانت تُقام فيه جلسـات التحضير مع بعض أصدقاء القريـة. هذا ما أعرف عـن حكاية جدي، ولا أحد يعرف مـاذا حدث له في آخر جلسة تحضير مع أصدقائه.

حـدث اهتزاز في البيت ثم دُخان كثيـف واختفاء لثلاثة من الموجودين من بينهم جدِّي، وابن العمدة، وابن أحد الباشـوات الذين كانوا يملكون عزبة صغيرة في القرية. بعد هذا الحادث باع أبي المنزل وترك هو وجدتي القرية.

نظـر عبد الكريم إلى تهامي الذي كان قـد غلب عليه النعاس وقال: ألم أقل لك إنهم لا يظهرون لأحد إلا أن يكون من نسلهم أو من نسل قريب لهم؟! دائمًا يكون هناك سبب.

- أين هذه القرية يا أستاذ عادل؟

- في إحدى قرى مِصْر الفقيرة اسمها (محلة بشر) أو قرية العفاريت.

قرية العفاريت

في إحدى القرى الصغيرة بصعيد مصر تقع قرية صغيرة في المســاحة، وفي عدد السكان، وجميعهم يعرفون بعضهم البعض؛ فهم يتزوجون من بعضهم بعضًا، وهم أقران أو بينهم نســب أو قرابة، وكلهم يشــتركون في شــيء واحد مهما كان الخلاف بينهم؛ وهو ســر القرية، هذا الســر أو (اللعنة) التــي نزلت على القرية مــن أكثر من مئة عام عندما ســكن القرية عائلة إنجليزيــة كان رب العائلة تاجر قطن، وكانت القرية من أشــهر القرى التي كانت تنتج القطن المصري المعروف، وصاحب الشهرة الأكبر في وقتها.

كانت هذه العائلة تملك مجموعة من الخَدَم، وتنزل القرية في وقت الحصاد، وقد أنشــأ (أندرو مايز) -وهذا اســم التاجر الإنجليزي- استراحة كبيرة في القرية حتى يســتطيع أن يُتابع موسم الحصاد، وبالطبع يحضر معه زوجته (هولدا) التي تزوجهــا من مســتعمرات الهند عندما كان يعمل هنــاك، وهي تأتي ومعها بعض الخــدم الهنود الذين يقومون بإعداد الطعام الهندي لها، ومعهم بعض الخدم من فلاحي القرية، وعلى رأس هؤلاء خورشــيد المصري؛ وهو المســئول عن تنســيق جميــع الأعمال الخاصة بحصاد ونقل وحســابات العمال حتى يوم نقل المحصول إلى القاهرة ثم الســفر إلى فرع الشــركة في إنجلترا، ولهذا كان الرجل يعلم أنه مِــنَ المكروهين من أهل القرية، وخصوصًا الشــباب؛ بســبب عمله مع الإنجليز، وخســف ثمن القطن في كل موســم من أجل إرضاء السيد (أندروا) وعائلته على حســاب أهل القرية، ومن أجل ذلك لم يتزوج من أهل القرية، كما جرت العادة

والحقيقة؛ فلم يوافق أي بيت على الزواج منه؛ بسـبب الخوف من شـباب أهل القرية، ليس أكثر.

علـى أي حال تزوج (خورشـيد) من خـارج القرية، وكانـت زوجته جميلة، الحقيقة كانت أجمل من بنات القرية، وسريعًا ما أصبحت حلمًا لكثير من شباب القرية المعترضين على وجود زوجها خورشيد، والحق أقول لكم: وُجِدت أصوات من القرية ترفض إشراكها في كرههم لزوجها، وأنها مغلوبة على أمرها، وهو فقط من يسـتحق العِقاب، لا، بل القتل، هكذا خرجت الأصوات تنادي بقتل خورشيد؛ خورشيد يجب أن يموت.

كان في وسـط الخَدَم توجد امرأة هندية تقوم بعمل السحر الأسود والأعمال السفلية قد علمت بطريقة ما بأمر الفلاحين، وعزمهم على قتل خورشيد.

هكذا خرجت الأصوات تُنادي بقتل خورشـيد، خورشيد يجب أن يموت. كان في وسط الخدم توجد امرأة هنديه تقوم بعمل السحر الأسود والأعمال السفلية، قد علمـت بطريقة ما بأمر الفالحين وعزْمهم على قتل خورشـيد، وفكَّرت كيف تسـتفيد من هذا الخبر؛ وكانت الخطة أن تُخبر خورشـيد -بطريق غير مباشـر- بوجود خطر على حياته، وأنها قد قرأت الطالع، وأن هناك مَنْ يريد التخلص منه، وأكثر من هذا لقد أفشـلت محاولة لقتله في آخر لحظة عن طريق السـحر مما جعل خورشـيد يُقَرِّبها إليه أكثر، وأصبح يعتمد على معرفة الطالع وقراءة فنجان القهوة قبل الخـروج إلى حقول القطن أو الذهاب خارج القرية لتخليص الأوراق الخاصة بنقل المحصول.

كان خورشـيد يملك الكثير من الأراضي في القرية، ويشـتري الخيول؛ حيث

كان مِنْ عُشــاق الخيل، وقد صرف عليهــا الكثير من ماله، وكثيرًا ما كانت الخيول سـبب الخلاف بين خورشـيد وفتحية زوجته التي كانت تتملكها الوحدة واليأس طول اليوم، كل مَنْ يوجد في الاسـتراحة يتحدث لغـات غير التي تتحدثها هي، البعض يتحدث الإنجليزية، والبعض الآخر يتحدث الهندية والإنجليزية؛ لذلك كان اليأس والإحباط يتملك منها، وكان الدافع الأساسي بدفعها للمشاجرة والخلاف مع خورشيد الذي بدأ يُظهِر اهتمامًا بالخادمة الهندية (ماري) التي لم تترك أي فرصة من التقرُّب والسيطرة على خورشيد إلا وانتهزتها.

وظَلَّ هذا الصراع قائمًا بينهما حتى حَدَثَ شيء غيَّر الأحداث كُلَّها؛ ففي صباح يــوم ١٠/ ١٠ من عام ١٩٢٠ اختفت ماري الهنديــة من غرفتها، ولم يوجد لها أي أثــر في القرية بأكملها، ولم يجدوا في أرضيــة الغرفة غير الحفرة التي كانت في منتصفها، وبعض كُتُب السـحر، وتمثال شـيفا الإلهة الهندوسـية، ولم يعثر على (ماري) أبدًا. وبعد عشــرين عامًا سافر (أندروا) وعائلته إلى إنجلترا، ولم يعُد إلى القرية مرة أخرى تاركًا الاســتراحة إلى خورشيد الذي عاش بها حتى ماتت زوجتُه في حريق قد شــب بغرفة (ماري) داخل الاســتراحة، وبعدها بســنوات لحق بها خورشــيد أيضًا بحريق في إسطبلات الخيل، ومن هذا التاريخ والقرية، ومَنْ نزلها تشب فيها الحريق كل فترة من السنوات، خاصةً في شهر أكتوبر حتى أصبح شهر الحرائق في القرية. ومنذ مئة عام تبدأ الحرائق من مكان الاستراحة القديم حتى أسطح منازل القرية في سرعة رهيبة مع عدم وجود رياح. وعلى مَرِّ السنين سكن القرية الكثير من السحرة والمشعوذين، ومنهم من جعل أهل القرية يرفعهم إلى درجة الصالحين وأصحاب الكرامات، وذاع صيتها، وأصبح للقرية زائرون من خارج

المحافظة ثم مِنْ خارج الدولة ثم مِنْ خارج القُطر حتى كتبت الصحافة الأجنبية عن القرية، وأصبحت معروفة بين الناس بقرية العفريت.

وهنـاك تُباع الكتب الخاصة بالسـحر وتحضير الجـن، وتحوَّلت المحلات في القرية إلى بَيْع العطارة والبخور وأدوات السحر؛ من حبر وأوراق ودم غزال.

عندما تدخل القرية الآن بعد قرْن من الزمان من الوهْلة الأولى يتهيأ لك أنك تتجول في شـوارع ألف ليلة وليلة. مِنَ النادر أن تتجول في قرية وتجد فيها كل هذا الكمِّ من الخيال مُجسَّـدًا في شوارع وطُرُق وحكايات سحر وطرائف إحساس يتسلل إلى من يَسير في شوارع القرية خاصة إذا كنت تزورها للمرة الأولى ولكن كل هذا لا يُمثِّل شـيئًا بالنسـبة إلى قصة (ماري) التي أخذت تتحور عبر السنين لتصبح رمزًا من رموز القرية؛ منهم من يقول: إنها كانت زوجة خورشيد في السر، ومنهم من يقول: عشـيقة فقـط. لا يوجد قصة واحدة، حقيقـة القصة الوحيدة الحقيقية هي أن خورشيد لم يعُد الخائن الذي يعمل مع الإنجليز.

الفصل الثاني

(7)

مملكة البحار

البحر عَالَمٌ مسكونٌ بالأسرار؛ هذا العجوز الساحر القاتل الغادِر بلا رحمة، أو هو ذا، والأعجب أن يُضْرَب بهذا العجوز الأمثال في الغَدْر وتغيُّر المزاج!

إن النظــر إلى هذا العجوز مثــل النظر إلى المرآة الجميلــة كُلَّما تأمَّلْت في جمال البحر غرقت في سِــحْرِهِ وأخذتني أمواجُه إلى عالم الخيال الذي لا يُشــبه الواقع؛ فالبحر مسكون بالكثير من الغموض المثير للخيال، البحر يُشبه المرآة في الحياة بكل ما فيها من تقلُّبات؛ في وقت السكون يكون كالطفل الوادع الضعيف الهــادئ، وبمجرد أن تتحرك أمواجــه يُصبح طفلًا عابثًا يُريد أن يركض ويصرخ في كل اتجاه. البحر الذي يبدو وادِعًا جدًّا يُصْبِح في لحظة مثل البركان الهائج.

لكــن اعلــم أن لكل بحر من بحار الأرض خصوصية لا تُشــبه أي بحار الأرض، وعند كل بحر تشــعر بمشــاعر مختلفة، ولــكل بحر من البحور حكاية وســكان مختلفون، تشبه حكاية البشر.

عندمــا يكون البحر هادئًا يتخيل الواقف على الشــاطئ أن هذا البحرَ حزين غامــض، لا يريــد البوح بأســراره، ولا يريــد لأمواجه العاليــة أن تضرب وتُلامس الصخور ولكن من قوانين الطبيعة أنَّ كُلَّ شيء في هذا الكون يحتاج إلى أن يهدأ في لحظة ما حتى يستجمع قُواه من جديد، ويضرب بعدها بكل ما فيه من قوة.

(8)

(جِنُّ الماء)

شاب في مُقْتبل العمر خرج يومًا مع أصحابه وبعض أقاربه في مركب للتنزُّه؛ ففي أثناء مرحهم واستمتاعهم بهواء البحر أخذت المركب تتمايل بشدة مع أنَّ الماء كان صافيًا. قفز هذا الشاب من المركب خشية أن تغرق المركب، وفي لمح البصر خرج من تحت الماء شيء من البحر على مرأى من الجميع سحبه إلى أسفل، إلا أنهم حاولوا بكل قواهم إنقاذه من الماء، وباءت كل المحاولات بالفشل، واختفى تحت الماء إلا أن المنظر قد شهد عليه شهود عيان من الشط القريب من المركب وسط ذهول مما يرونه، فعادوا إلى أبيه لإخباره، فسارع الأب المسكينُ إلى مكان الحادث ومعه بعض أقاربه في مركب آخر، وأخذ الأب ينادي على ابنه ساعات طويلة، ويبكي على ما أصابه. وفجأة ظهر الابن بجانب المركب يطفو جُثَّةً هامدة فانتشلوه من الماء. يحكي الأبُ هذه اللحظة فيقول: «عندما أخرجتُ ابني من الماء كان جسدُه ساخنًا كأنَّهُ لقي مصْرَعَهُ في هذه اللحظة، وعلى جسده ووجهه علامات ضَرْب شديدة». وعندما سأل أشخاصًا لهم عِلْم بهذا المجال قالوا له: إن نداءك المستمر والبكاء عليه دفعه إلى المقاومة والتشاجُر مع الشيء الذي ضربه بهذه الطريقة، هذا الشيء غير المعروف هو من ضربه عندما وَاجَهَ إصراره للعودة فقتله؛ هذا لأنهم لا يسمحون أبدًا للآدمِي بالعودة والتحدُّث بأسرارهم التي رآها تحت الماء؛ وهذا يُفسِّر آثار الضربات القاتلة الواضحة على جسده.

نظـر الأب المنكوب إليهم وهو لا يكاد يفهم شـيئًا مما يُقال أو يدور حوله، وبعد أيام قليلة كانت المفاجأة.

سبب الوفاة ضَرْبٌ مُبرح أدى إلى الموت، ولا يوجد أي آثار (إسفكسيا) الغرق.

بعد السَّـرْد الكامل والشامل عن القرية وأهلها وتاريخ عائلات (هلال)، يسأل (عـادل) (عبد الكريم) عن ماذا يقصد الكاتب بعنـوان الكتاب (مملكة الناقمين والواعرين)؟

وفي نظرة قاسـية وبصوتٍ حادٍّ من عبد الكريم: هل تظن أن الإجابة عن هذا السـؤال سهلة وبسـيطة؟ هل تعلم يا دكتور أن هناك مَنْ ضاعت حياتُه كلها من أجـل معرفة هذا الكتاب، ومنهم كاتب هــذا الكتاب الذي تحمله بين يديك مثل أي كتـاب في مكتبتك؟! يـا دكتور عادل، هذا العنوان هو عنوان عالم آخر، وباب إذا فُتِحَ لن يُغْلق مرة أخرى، ومَنْ يدخل من هذا الباب لن يعود مرة أخرى، وإذا عاد لن يعود كما كان قبل أن يدخل من هذا الباب.

ومع هذا سأحكي لك عن هذا العالم، ولكن أقترح عليك أن تعرف في البداية من هو كاتب هذا الكتاب؟ (الحسين الطوخي) لم يكُن كاتبًا عاديًّا؛ الطوخي كان عالِمًـا من العلماء الروحانيين، ولن يتكرر مرةً أخرى في الزمان القريب. الطوخي كان علامــة فارِقه بين عالم وعالم أخرى. الطوخــي كان واحدًا من حُرَّاس البوابة التي بين الناقمين والواعرين حتى يوم اختفاء الأسـطورة التي لم أشــاهد مثلها غير في كتب الأولين من الروحانيين المهرة. الطوخي كان عاشـقًا للفلك والأرقام والنجوم مع كِبَر سِنِّه في آخر أيامه قبل أن يختفي قد كنت سعيد الحظ بأن أقابل هذا الأسـطورة في المغرب في مؤتمر الفلك والفلكيين؛ كان رجلًا أبيض البشـرة

أميل إلى الحُمْرة، كان ذا لحية بيضاء، وعيون لا تتوقف على بؤرة واحدة، سريع الحركة والحديث، قصير الكلام، طويل القامة، لا يقف في مكان في أثناء الحديث؛ نصف ساعة من الحديث معه ولم يتوقف عن المشي والحركة، كان هذا آخر عهدي به؛ حيث بعدها بشهور علمتُ -من قراءتي للأخبار- اختفاء عالم فلك في ظروف غامضة، وأظن أن إحدى بناته قد ماتت قريبًا في حادِث مُؤسِف.

والآن سوف أجيب عن سؤالك يا دكتور؛ هم قبائل مِن حراس البوابة، يعيش (الناقمون والواعرون) في الأماكن التي يوُجد فيها ماء؛ أنهار، وبحار، وينابيع.. إلخ.

لا يمكن للناقمين أن يُشَكِّلوا خطرًا على جسد الإنسان إلَّا إنْ حَدَثَ الاحتكاك عن طريق الماء مثل السباحة أو الاستحمام أو الشُّرْب.

(عادل) بصوتٍ حاسم: انتظر، أنا لا أريد أن أستمع إلى حكايات ليس لها أي أساس ملموس.

وبصوتٍ قاطِع ونظرة حاسمة مِنْ (عبد الكريم): أنت سألتَ عن الحقيقة، وأنا أحكي عن الحقيقة التي أعرفها، والتي سوف تجدُها هنا في هذا الكتاب، والآن هل تريد أن تعرف الحقيقة؟

- نعم، نعم.

- لا يوجد حقيقة من منظور ثابت أو أوحد، ولكن الحقيقة هي أن لا حقيقة منفردة، وهذا ما كان يريد الطوخي أن يصل إلى الجميع؛ أن هناك أكثر من حقيقة وأن لا شيء مما تعلمته أو تعرفه هو الحقيقة الكاملة.

- نعم، أنا معك بعد كُلِّ ما حدث، أنا لا أعرف ما أقول، ولكن فعلًا لا شيء أصبح ثابتًا في عالمي الصغير. كان يومي يبدأ من الغرفة الصغيرة في شقتي إلى

العمــل، ومن العمل إلى الغرفة الصغيــرة، لا عوالم أخرى وكان هذا كل ما أعرف عن الحقيقة، والآن لا أســتطيع أن أعود إلــى عالمي الصغير في غرفتي الصغيرة، وبجوار زوجتي العزيزة، ولكن أنا مدفوع بشيء لا أعلم عنه غير أني أريد التعمُّق حتى أعرف هذا الشيء.

- إذن اسمع وابحث عن الحقيقة أو ارجع إلى غرفتك وعالمك الصغير.

بعد انتهاء الحديث يذهب (عادل) إلى الغرفة، ويجلس على طرف الســرير، ويُمســك في يــده كتاب (النواقــم والواعريــن)، ويفتحه على مُقدمــة الكتاب، والتعريف بالمؤلف، والناشــر، ثم يشــرع في قراءة أول فصل من الكتاب بعنوان (اليوم المشهود).

(9)
اليوم المشهود

في وســط الأمواج المتلاطمة أســفل البحر، وعلى عُمْق من الســطح، وعلى امتداد أحد الخنادِق، وعلى أشــهر مكان لســكان البحور (مارينــا) يُقامُ الاحتفال المنتظــر يــوم تتويج فارس البحور أمير البحر الأخضر (تــاج ابن الملك الأخضر)، وقد أكمل العام العشرين بعد المئة، وقرَّر الملك الأخضر وعمُّه الملك (مرة) ملك البحر الأزرق أن يُتَوَّج ويخطب بنت عمه (هالي).

(هالي) أميرة البحور معشوقة أمراء سُكَّان البحور من الجن الأحمر والأخضر، وصديقة الجن النواقم والواعرين. وكانت معشوقه الأمير (خربط بن زخبيلة بنت الملــك الأحمر) قبل الحرب الأخيرة منذ خمســين عامًا؛ أي قبــل أن يصبح ملكًا وتُقَسَّــم الممالك إلى ثلاث ممالك، وينقســم ســكان البحور إلى مُؤَيِّد ومعارِض كان ذلك قبل أن يســتحوذ (خربط) وأمه على باقي البحور السبعة، والسماح إلى النواقــم والواعرين بالصعود إلى ســطح البحور، وقتل وخطف بني الشــاطئ مِن رجال ونساء وأطفال؛ يغتصبون بعض الفتيات في أثناء نومهم، أو خطفهم قصرى دون أن يعلم عنهُنَّ (الخناس) أو (أبو البنات)؛ قائد جيوش سكان البحور، ورئيس مجلس ســكان المملكــة القديمة، لا يتزوج أحد في البحــور إلا بعلمه، لكن بعد الحرب الأخيرة خرج النواقم والواعرون عن السيطرة. وبتشجيع من (زخبيلة بنت الملك الأحمر) بعد أن وضعت أباها وزوجها في سجن الظلام أسفل قاع المحيط، بعدها تغيَّرَ كُلُّ شــيء، تبدَّل الخيرُ إلى شــرٍّ، ووُضِعَ الأخيارُ والمفكرونُ والقادةُ

العظامُ في غَيَابَات سجن الظلام؛ هذا السجن الذي لا يُعْرَف عنه شيء من سكان البحور غير الإشــاعات، وما يسمع من حديث من صغار الجند من الحرس القديم الذين استُبعِدُوا من الملك (خربط) وأمه الملكة (زخبيلة).

◆ معاناة على الشاطئ

على أحدِ الشــواطئ المزدحمة بشِــبَاك الصياديــن وأدوات التجهيز للمراكب بأدوات الصيد استعدادًا لرحلة الصيد من فائض سُكَّان البحور، هؤلاء هُمْ أصحاب الخير الذي يخرُج من باطن البحر، والسكان الشرعيون، وأصحاب الثروات البحرية والمعادن التي يُحارِب من أجلها ســكانُ الشــاطئ، والتي لا تعني شــيئًا لســكان البحــور، ولكنها تعني كل شــيء لســكان الشــاطئ؛ وبهذا المنطــق كان يتعامل (النواقم والواعرون) مع بني الشــاطئ؛ وهم كل فترة يقومون بعمليات انتقامية من أجل إخافة وإرهاب بنى الشاطئ.

أما عن معاناة أهل الشــاطئ اليومية يكفي أن تعلم أنهم يعيشون على رِزْق اليــوم الواحد الذي يخرج من مملكتنا الواســعة. هم يقومــون من الصباح الباكِر للخروج إلى الشاطئ حتى يستطيع كل فرد منهم أن يعيش يومه فقط، وألَّا يطمح أيٌّ منهم في أكثر من رِزْق يوم واحد له ولأسرته؛ يوم واحد فقط! تخيَّلْ هذا هو أكثر حلم يحلم به ســكان الشــاطئ! هذا ما حكاه أحد النواقم لأمه وهو جالس علــى أحد العوارض في حاويتهم مفتخرًا بما يفعــل هو وأصدقاؤه من الواعرين، وكان يرفــع من صوته وهو يتابع إحدى بنات النواجم ابنة أحد الجيران التي كان بينهــا وبين أخٍ لها علاقه صَدَاقة، ولم تكتمل؛ حيث قُتِلَ في الحرب الأخيرة والتي رفضت أي عرض منه أو مِنْ أمه بزواجها منه، وقالت: لن أفعل هذا حتى لو ظللتُ دون زواج احترامًا لذِكْرَاه.

◆ الحكاية

حتـى تعرف طبقات وتقسـيم المملكة وسُـكَّانها يجب علـيَّ أن أحكي لك الحكاية من البداية، ومع بشاعة القصة وأحداثها لكن لا مَفَرَّ من الحكاية.

قبل مئة عام كانت المملكة كلها تعيش تحت حُكْم واحد من الشعب الأخضر والأحمـر والنواقم والواعرين، وجميع القبائل كلها تحت حُكْم واحِد؛ حُكم الملك (زوبعة) الأخ الأكبر لكل من الملك الأخضر والملك (مرة)، ولكن انقلب وزيره على حُكمه، وانقسم سُكَّان البحور إلى مُؤيِّد ومعارِض، وكذلك الأمراء والوزراء والقادة والجُند أصبح الانشقاق في جميع نسيج المملكة ثم حَدَثَ الصِّدَام بين المؤيدين والمعارضين؛ المدافعين عن الملك والمعارضين، والمؤيدين للوزير (الكحيان).

حدثت الحربُ الأهلية والتي ظلَّت سـبعة أعوام عاناها سكان البحور في كُلِّ الممالك حتى قُسِّـمت؛ الطبقة الأولى -وهي الأضعف- من السـكان، وتقع تحت حُكْم الملك (مرة) وابنه الأمير (تاج).

الطبقة الثانية -وهي الطبقة الوسطى- وتقع تحت حُكم الملك الأخضر، وبنته هالي.

الطبقـة العليا -وهـي الطبقة التي تعيـش في الدرجة الأسـفل من البحور، والممنوعة علـى الطبقات الأخرى- وتقع تحت حُكْـم الملك (خربط بن زخبيلة بنت الملك الأحمر)، وتتكون من ثلاث ممالك؛ المملكة الأولى والثانية تحت حكم (خربط) وأمه، والثالثة تحت الوزير (الكحيان) بعد أن تزوج بنت الملكة (زخبيلة) وأخت الملك (خربط)، وقد زوَّج ابنته (أم الشـعور) مـن الملك (خربط)؛ وبهذا أصبحت الممالك الثلاث تحت حكم عائلة واحدة ضد الممالك الأولى والوسطى.

المملكة السادسة: وهي مملكة الملاعين أو مملكة السحرة والملاعين من الجن الغواص، وتقع عند مقبرة الأجداد، أو المقبرة المنسية، وهي تحت حُكْم الملك (ميمون المجنون) ملك الجن العاشق.

المملكة السابعة: وهي مملكة قرن الماعز، وهي مملكة الجن الضوئي وماردي ومارقي البحر، وتقع في أرض (الأشدون القديمة)، وهي تحت حُكم الملك (دهمان بن قيعان) ملك الغيلان، وهي آخر الممالك قبل مملكة المياه البعيدة، والتي أصبحت الآن مكانًا خاليًا لا يريد أحد أن يذكره، لا من قريب ولا من بعيد. المياه البعيدة هي أرض تقع في آخر الممالك، وكانت من مئة عام أرض السحر والسحرة، ومركز الممالك وأيضًا كان يأتي إليها السحرة من كل مكان حتى عالم سكان الشاطئ من الإنس والجن، كل عشرة أعوام الجميع يحضر الاحتفال في أول عشرة أيام من شهر أكتوبر آلاف السَّحَرة مع أهالي المملكة في قلب الليل في وادي كبير لحضور (عيد الاحتفال بالموتى). يبدأ الاحتفال بالصَّمْت التام ليصبح المناخ مُهيَّأ للاتصال المباشر بين الموجودين وأرواح الموتى الهائمة، وهنا يبدأ احتفال الرعب الأقوى في العالم.

عندما وَصَلَ (عادل) إلى هذا الجزء من القراءة توقَّف تمامًا عن تحريك القلم مِنْ على السطور؛ وهي عادة قد استمرَّت معه من الصِّغَر؛ أن يحمل قلمًا رصاصًا وهو يقرأ ويضع خطوطًا عند الكلمات المهمة، أو التي قد أُعْجِب بها، أو كلمة لا يجب أن تَمُرَّ مرور الكرام، مثل احتفال الرُّعب الأقوى في العالم، ماذا يكون هذا الاحتفال؟ وماذا يحدث؟ ولماذا كل عشرة أعوام؟ ومن الذي يحضر مِنَ البشر هذا

الاحتفال؟ وكيف يستطيع إنسان أن يحتفل تحت الماء ويعيش مع هؤلاء عشرة أيام؟ مجموعة من الأسئلة دون إجابات. يجب عليَّ أن أُكمل القراءة حتى أكشف عن الإجابات وأفهم ما الذي يحدُث هناك؟ وما الرابط بين هذا الاحتفال وبين ما يحدُث هنا؟ إذن لن أنام حتى أُنهِي هذا الكتاب، لا بُدَّ أن أُنهي هذا الكتاب.

في المقابل كانت (هالة) قد بدأت في قراءة كتاب (الموتى يهمسون)؛ مقدمة الكتاب، والتعريف بمؤلفته سلوى الحسيني. كان أول وآخر كتاب لها؛ لم يُنْشَر لها أيُّ أعمال بعد هذا الكتاب. والغريب أن الكتاب طُبِعَ في لبنان بنفس اسم الدار التي أُغْلِقَتْ في مصر منذ أكثر من عشرين عامًا، وبعد وفاة صاحب الدار؛ كُلُّ شيء غريب عن هذه الدار حتى الكُتُب والكُتَّاب الذين نشروا باسمها، هناك شيء غريب، ويجب أن أعرف ماذا حدث؟!

في صباح اليوم التالي أمام الباب الخلفي من المشرحة يقف عددٌ كبيرٌ من سيارات الشرطة والصحفيين، ومعهم مُصوِّرون إذا كان هناك حَدَث وحَدَث كبير ليس حدثًا عاديًّا.

داخل مكتب الدكتور علي درويش يُوجد بعض رجال المباحث. يصل (عادل) إلى مكتبه وقد بدأ يربط الأحداث بعضها ببعض، وفهم أنَّ كل هذا بخصوص قضية المطربة (أماني عيسى) التي اغتُصِبَتْ بعد الوفاة، ولكن مَنِ الفاعل؟ مَنْ هذا البشري الذي استطاع أن يفعل هذا بشخص ميت؟ من أين له هذا القلب؟ كيف تجرَّد مِن الإنسانية والضمير الإنساني حتى يستطيع أن يفعل هذا الفِعْل؟ مَنْ هذا الذي قد يستطيع أن يعيشَ حياته مرة أخرى بعد هذا الفعل؟ وكيف يستطيع أن

يعيــش مرة أخرى بعد أن يفتضح أمره أمام الملأ وأمام أهله وأصدقائه؟! يا الله!!
ولكــن لا بُدَّ لي أن أعــرف مَنْ هو هذا الفاعل. يترك المكتب، ويتحرك حتى يصل إلى مكتب الدكتور علي درويش الذي تجمَّع أغلبُ العاملين أمام الباب وبصعوبة بالِغَة وصل إلى الباب، وقبل أن يفتح الباب كانت هناك مفاجأة أكبر من احتماله.

(10)
الحقيقه الغائبة

وصلت (هالة) إلى نهاية الكتاب، وبنهاية آخر صفحة قد وصلت إلى الحقيقة التي كانت تحسـها، ولا تستطيع أن تتحدث بها، كان الكتاب يتحدث عن الأرواح المُعذَّبة في الدنيا؛ بسـبب فُقـدان الأحبة والمقربين وكثـرة التفكير في العالم الآخر. وماذا يحدث لِمَنْ سـبقهم من الأحِبَّة إلى هناك؟ وهل نسـتطيع أن نُقابل مَنْ نحبهم مرة أخرى بعد الموت؟ لكن كان الشيء غير المتوقع أن هناك أشخاصًا استطاعوا أن يصلوا إلى تواصل مع بعض الأشخاص عن طريق الهمس لهم أو إعادة تذكيرهم بمواقف كانت بينهم قبل الانتقال إلى العالم الآخر، وعن طريق القرين من الجن أو الظهور لبعض المقرَّبين لهم حتى يُرشدوا إلى الطريق السليم. الأمر مثل الحلم أو إذا كان الشـخص ظالمًا أو مظلومـًا قبل الانتقال. ولن تجد بالطبع أي دليل يستطيع الكاتب أن يُقدِّمه، الأمر مثل الحلم، وحكايات ألف ليلة، ولكن القصة ليسـت هكذا يا عزيزي، ليست بهذه السهولة، الأمر أكثر تعقيدًا من هذا. هناك شـيء في الكتاب جَعَلَ (هالة) تصرُخ بكل ما تملك من قوة بكلمة واحدة بعد آخر صفحة في الكتاب؛ تصرخ: «لا، لا، مستحيل».

يفتح (عادل) الباب، فيجد المساعد (خالد) يجلس على الأرض مُحاطًا بعساكر الشرطة، ويبكي بُكاءً هسـتيريًّا، ويقف أمامه ضابط المباحث، والدكتور درويش يمـد يده يصافح (عادل)، وينظر إلى ضابط المباحـث، ويقول: هذا هو الدكتور عادل هلال رئيس خالد في العمل. ينظر إليه الضابط نظرة عابرة ويتساءل: منذ

متى وهو يعمل معك يا دكتور؟

- يعمل معي منذ أكثر من عشرة أعوام.

- عشره أعوام! هذه مُدة زمنية طويلة، ألم تُلاحظ عليه أي علامات أو أفعال تجعلك تشك في سلوك خالد؟

- لا، لم أُشاهِد أو أسمع عنه أيَّ شيء غريب أو تصرُّف غير لائق، ولم أسمع من أحدٍ من زملائي من قبل، وأيضًا لم أسمع كل هذه المدة من أي زميلاتي الممرضات أو الدكاترة عن أي تحرش أو فعل مُخِل أو شكوى منهم ضد (خالد). لقد كان موظفًا مثاليًّا في كل شيء، فهل تسمح لي أن أسأل ماذا حَدَثَ بالضبط؟

- نعم.. نعم.

- بالتأكيد أنت تريد أن تعرف ماذا حَدَث، لقد اغتُصِبَتْ إحدى الموتى هنا مِنْ فترة، ولم يعلم أحد بالطبع وقتها، لكن أراد الله أن يكشف سِرَّ هذا الآثِم، فكان ما كان، وواجهناه فاعترف.

- اعترف؟! كيف هذا؟

- نعم، قد اعترف بعد أن كُشِفَت الحقيقة، وبعد أن قام أقارب (أماني عيسى) -أظن أنك تعرفها- بعمل تحليل الحمض النووي، وكانت هناك آثار حمض هذا المريض الهالِك، ولكن عند مواجهته بالحقيقة انهارَ واعترفَ بما فعل، وحكى كيف نفَّذَ جريمته. لم يكن متزوجًا وقتها، وكان من المعجبين بهذه الفنانة، وعندما علم أنها ماتت في المستشفى، وبعد تقرير الوفاة وقبل التغسيل دخل خِلْسة إلى الثلاجة ومعه أحدُ أصدقائه من العاملين في المستشفى الذي لم يستطع أن يفعل مثله، وخرج مُسرعًا إلى الخارج، وبعدها بعام واحد مات.

- الآن وقد علمتَ، هل تريد أن تضيف شـيئًا قبل أن نقفل المحضر وننصرف إلى النيابة؟!

- لا، أشـكرك، لا أريد أن أضيف شـيئًا. ثم يتحرك الضابط والعسـاكر، ويضع الحديد في يد (خالد) الذي انقطع عن البكاء وهو ينظر إلى (عادل) نظرة الطفل الصغيـر ويقول: «والله كنتُ صغيرًا ولـم أفعلها من بعدِها، وقد حاولت أن أُكَفِّر عـن ذنبي، كنت أذهب إلى قبرها كل يوم جمعة فأقرأ لها القرآن وأدعو لها حتى تسـامحني على ما فعلتُ، وتزوجت بعدها، وأنجبت ابني الذي قد أطلقتُ عليه اسـمك حُبًّا واحترامًا لك، سـامحني يا دكتور عادل، وكَلِّم زوجتي وأهلي وزميلي واطلب منهم يسامحوني.

ينصرف (عادل) بعدها مُسْـرعًا إلى الشـارع، ومِنْ شدة الحزن على ما حدث يمشي في الشوارع دون وجهة أو هدف حتى يصل إلى مكان مُفَضَّل على شاطئ النيل يجلس وينظر إلى السـماء الصافية والقمر والنجـوم قد جعلت مياه النيل مثل إضاءة من نور الملائكة. وفي هذا السـكون تظهر العجوز بجواره، ينظر إليها نظـرة ارتيـاح عن كُلِّ مرة، نظرة العـارف والواثق بما هو قَـدَر ومكتوب، وتنظر هي نظرة الحكيم بما يدور، ثم تقول: المشـوار قـد اقترب على الانتهاء، وأصبح البعيد قريبًا، والمريض على مشـارف الشفاء، وكل شيء مكتوب. تنصرف العجوز أو -بالأصح- تختفي عن الوجود، ويظل (عادل) جالسًـا حتى الصباح، لا يتحرَّك أو يغمض له جفن.

ظلَّ جالسًـا هكذا حتى أول خيوط الصباح، ثم تحرَّك عائدًا إلى المنزل، وفي الطريق ظلَّ يرفع نظره إلى السـماء كلما تذكَّر موقفًا أو شيئًا مما حَدَث، فشاهد حياته أمامه كفيلم سينمائي.

حاول أن يسـترجع أحـداث الماضي؛ فقد كان ابنًا وحيـدًا ليس له إخوة، ولا يعرف أحدًا مـن أقاربه، وخصوصًا أقارب أهل أبيه، ولا يعرف مَنْ أقارب أُمِّهِ غير بنت خالته (هند)، والتي لم يشـاهدها مـن يوم وفاة أمه؛ حيث كانت تأتي إلى منزلهـم وتجلس مع خالتها. مَرَّ على هذا أكثر من خمس سـنين، شـاهدها يوم زواجـه من نجلاء، وبالرغم من أنه كان محبوبًا من زملاء الجامعة والعمل فإنه لم يجد صديقًـا مُقرَّبًا يحكي له ما حَدَثَ! كل أصدقائه من الحي القديم الذي تربَّى وعاشَ فيه أغلبهم قد سافر أو ظروف عملهم تمنعهم مِن أن يأتوا في يوم تجمع الأصدقـاء. ومع مرور الزمان يقلُّ اجتمـاع الأصدقاء، وتبتعد الصداقة حتى أصبح مَـنْ يحضر اجتمـاع الأصدقاء لا يتعدى الأربعة أو أقل. كان (عادل) مثل أي رجل يحب أمه جـدًّا، وعندما فَقَدَها فَقَدَ معها الكثير مِنَ السـعادة والحب وخصوصًا أنـه فَقَدَ أباه وهو في سـن صغيرة؛ عندما خرج أبوه لقضاء مناسـك العمرة مع بعـض أصدقائه، وتُوفي هناك، ولـم يعُدْ مرة أخرى، ولا يعـرف أين قبره؛ حيث دفنـه أصدقاؤه هناك فـي البقيع. حدث هذا وكان عمره خمس سـنوات، ولكن كان يتذكـر صوت والـده جيدًا، وكان من الصعب أن يجمـع ملامح الوجه جيدًا؛ من أجل هذا أصبحت أُمُّهُ كُلَّ شيء، وعندما ماتت شعر بأنه فَقَدَ هُويته ووجهته في الحياه؛ كانت أُمُّه هي البوصلة التي تسـتطيع أن تسـاعد في توجيهه ببوصلة إيمانه، وبعدها فقد الإيمان، ولم يعرف هذا الأبعد هذه الأحداث.

يصل إلى المنزل، ويعود ويُمسـك بآخر كتاب (مُدن منسـية)، ويجلس على طرف السرير، ويبدأ في قراءته بعد التعريف بالمؤلف ومقدمة الكتاب، والعنوان (المدينة البرونزية).

(11)
المدينة البرونزية

لـم نعرف مدينة في العالم شـيَّدَها أهلُها من النحـاس أو الفضة أو الذهب أو البرونـز إلا تلك القصور في مدينة البرونز، ويُقال: إنَّ كل مباني هذه المدينة مَبْنِيَّة من النحاس والبرونز والفضة المسكوبة، بناها الجنُّ في عهد النبي سليمان عليه السلام.

◆ ما هي مدينة البرونز؟

يُقال: إن مدينة البرونز هي نفسها مدينة الواحة؛ مكان بسيوة، وأخرى كانت فـي الأندلس القديمة (المغرب الآن)، ويقال لها أيضًا: مدينة الصفر بسـبب لون النحاس البرونزي. تتميز هذه المدينة بطابعها الأندلسـي، وتجمع بين مزيج من الثقافات العربية والأندلسية.

تقـع مدينة البرونز على سـاحل البحر الأبيض المتوسـط بالقُرْب من مدينة مرسـى مطروح بين مرتفعات جبل وسلسلة جبال الصحراء القاحلة اللون، وتبعُد على بُعْد أمتار قليلة من مدينة سيوة وغرب مدينة الإسكندرية.

◆ قصة مدينة البرونز:

يُقال: إنَّ مدينة البرونز تلك التي تقع في العالم القديم في عصر الإسـكندر الأكبـر، حيث أشـار الطوخي إلى أن مدينـة البرونز بَنَاهَا الجن لكبار السـحرة، حيث يجتمع بجميع كبار وكهنة السـحر في الشرق الأقصى قريبًا من بحر وسجن الظلمات. وقد أمر كبير الكهنة -بعد آلاف السنين في عصر الإسكندر الأكبر حاكم

القبائـل في هذا الوقت- بـأن يبحث عن هذه المدينة، فخرج وخرج معه الأدِلَّاء يدُلُّونه على تلك المدينة، فسـار في الصحراء أربعين يومًا حتى أشرف على أرض واسـعة كثيرة المياه والعيون والأشـجار والوحوش والطيور والحشائش والأزهار، وبَدَا لهم سور مدينة البرونز فهالَهم منظرُها.

أمر قائد الجيش بأن يبحثوا عن باب في السُّـور، وما إذا كان هناك أي شخص يعيش هناك إلا أنهم لم يجدوا بابًا ولا بشـرًا؛ لذا فقد حفروا عند سـور المدينة حتى وصلوا إلى الماء، فوجدوا أن أسوارها من النحاس والفضة مُثبَّتة بشكل متين تحت الأرض، فعلموا أنه لا سـبيل إلى دخولها مِنْ سـورها. أمـر القائد بأن يبنوا أبراجًا شاهقة عند كل زاوية من زوايا السور حتى يتمكنوا مِنْ دخول المدينة.

ثـم نَدَبَ قائد الجيـش مُناديًا ينادي في الناس أنَّ مَنْ صَعِد إلى أعلى سـور المدينـة ومات نُعطي دِيته إلى أهلـه وأولاده، ويكون مِن الْمُقرَّبين؛ فجاء رجال كثيرون، ومات الكثير دون سـبب. انتشـر بينهم المرض والموت، وكانت الأرض تخسـف بهم بليلٍ، ولا يُعْرَف لهم مكان، وجاء شـاب صغير من الشـجعان يريد أن يصعد إلى الأعلى ثم صعد حتى علا فوق السـلم على سـور المدينة، فلما علا وأشرف على المدينة ضحك وبكى بُكاءً شديدًا، وألقى بنفسه داخل سور المدينة، فسـمعوا صراخًا حرك الأرض من تحـت أقدامهم، وحدَثَتْ ضجَّة عظيمة وأصوات هائلة، ففزعوا، واشـتدَّ خوفهم، وتمادتْ تلك الأصوات ثلاثة أيام، ثم سكنت تلك الأصوات، فصاحوا باسـم ذلك الرجل من كُلِّ جانب من العسكر فلم يجبهم أحد، فلما يئسوا منه ندب أيضًا قائد الجيش مُناديًا فنادى في الناس وقال: «أمر الكاهن العظيـم أنَّ مَنْ ذَهَبَ وصَعِدَ إلى أعلى السـور أعطيته ألف دينار من الذهب».

فبرز رجل آخر من الشــجعان وقال: «أنا أصعد إلى أعلى الســور». فأمر القائد أن يُعْطَــى ألف دينار ذهــب فقبضها، وَوَصَّاهُ وقال له: «لا تفعل كما فعل الشــاب، وأخبِرْنا بما تراه، ولا تنزل إليهم وتترك أصحابك». فعاهَدَهم على ذلك، فلما صَعِد وأشــرف على المدينة ضحك وصفَّق بيديه وبكى بُكاءً شديدًا، وألقى بنفسه، وكل مَــنْ في المكان يصيحون ويقولون له: لا تفعــل! إلا أنه لم يلتفت إليهم وذهب فسمعوا أيضًا أصواتًا عظيمة ثلاثة أيام ثم سكنت، فقال القائد: لن أذهب من هُنا وأنا لا أعلم شــيئًا عن حال هذه المدينة، وبماذا أكتب وأجاوب الكاهن الأعظم؟ وقــال: مَنْ صعــد أعطيته أضعاف الدية عَشْــر مرات وخمســة آلاف دينار. فقام رجل من الشــجعان وقال: أنا أصعد فشُــدوا في وسطي حبلًا قويًّا وأمسكوا طرفه معكم حتى إذا أردت أن ألقي نفســي إلى المدينــة فامنعوني. قال: ففعلوا ذلك وصَعِد الرجل، فلما أشرف على المدينة ضَحِك، وألقى بنفسه، فجرُّوه بذلك الحبْل من داخل المدينة حتى انفصل جســدُه نصفين، ووقع نصفُه خارج السور، بينما ذهب نصفه الآخر إلى داخل المدينة، وكثر الصياح والضجيج. فحينئذٍ يئس القائد من أن يعلم شــيئًا عن خبر المدينة. وقال: «ربما يكون في المدينة جِنٌّ يأخذون كل من طلع على المدينة». وأمر عســكره بالرحيل، وســار خلف المدينة راجعًا. بعــد هذا اليوم بآلاف الســنين لم يعرف هذا المكان أحــد، وأصبحت القصة من قصص الخيال؛ البعض يقول: إن المدينة موجودة في الأندلس. والبعض يقول: إنها موجود في صحراء ســيوة بمصر، وكذَّب البعض القصة من الأساس، وكما قُلتُ: لا توجد حقيقة ثابتة، الحقيقة لها وجوه كثيرة.

◆ المواجهة:

في الساعة التاسعة مساء يستيقظ (عادل هلال) على جرس الباب، ينظر إلى المنبه الموجود بجانب السرير ثم إلى شباك الغرفة. كان القمر في هذا اليوم مُكتملًا، والسماء صافية. تحرك إلى الباب ونظر إلى كاميرات مدخل الباب فوجد الدكتورة هالة الحفني، عندما دخلت على غير العادة ألقت بجسدها عليه، وسقطت على الأرض في غيبوبة. أسرع (عادل) إلى التليفون واستدعى الطبيب، وبعد إجراء الكشف عليها قال الطبيب: يا دكتور، المدام محتاجة إلى راحة ضروري؛ لأنها مُصابة بارتفاع في ضغط الدم، وأنت دكتور وأكيد فاهم كيف تتعامل في مِثْل هذه الحالات.

- أكيد. شكرًا يا دكتور عبد الحليم، تحياتي لحضرتك.

كانت الساعة الحادية عشرة مساءً وهو يسمع صوتها من الغرفة تنادي:

- يا عادل.

- نعم يا دكتورة.

- أريدك أن تساعدني في الذهاب إلى البيت، لقد تأخر الوقت.

- نعم، لكن أنتِ مُتعبة جدًّا، ولا تستطيعين النزول الآن، ممكن تستريحي اليوم هنا، وأنا سوف أذهب إلى الحاج تهامي؛ فهو يقيم في نفس الشارع.

- لا يا دكتور، لا أستطيع ترك أمي وحدَها في المنزل.

- من الممكن أن أخبرها بأنك في العمل أو في غرفة العمليات ومعك حالة حَرِجة ولن تستطيعي أن تُنهي العمل الآن...

- لا، مِن فضلك ساعدني حتى أستطيع الذهاب إلى المنزل. لكن قبل أن أنزل

يجب أن تقرأ هذا الكتاب (الموتى يهمسون أحيانًا).

- نعم، أليس هذا الكتاب من مجموعة كتب (مريم)؟

- نعــم، كان مــن الكتب الموجودة في بيت مريم، ولقــد انتهيت من قراءته اليوم، ويجب أن تقرأه اليوم قبل غدٍ.

- أكيد، ســوف أفعل هذا، ويجب أن تقرئي هذا الكتاب (مُدُن منســية)، لقد انتهيت من قراءته اليوم أيضًا، وقد صُدِمْتُ كثيرًا، وهناك أشــياء كثيرة لم أفهمها؛ لذلك سوف أقابِل الحاج تهامي وعبد الكريم الساحر حتى أجد إجابات عن هذه الأسئلة.

- يــا دكتور عــادل، يجب أن تقرأ هذا الكتاب؛ فكل ما ســمعته أو قرأته ومَرَّ عليك من صدمات في حياتك لن يكون شيئًا يُذكر مِنْ هَوْل ما ستجده فيه.

- مــاذا يوجد في هذا الكتاب؟ أو ما الشــيء الذي كان له وقع هذه الصدمة التي أشــاهدها في عينيك وقد وقع أثرها في قلبك وجســدك؟ ما الســر العظيم الذي فَعَلَ بكِ هذا؟

- إذن ســوف أخبرك مع أنني كنتُ أتمنى أن تقرأ أنتَ بنفسك، وتعرف السِّرَّ والصدمة، ولكن سأُخبرك بهذا السر يا دكتور عادل، ولكن لي سؤال، كل نهاية هي باب لبداية جديدة، أين كنت منذ عام؟ أتعرف أين كنتَ؟!

- لا أفهم السؤال! بالطبع هنا في المنزل أو في العمل إذا كان هذا هو سؤالك أظن هذه هي الإجابة.

- لا يــا دكتور، لقد جمعتُ بعضَ المعلومــات عنك بعد قراءة كتاب (الموتى يهمســون)؛ لأن الكتاب يتحدث عن عوالم روحانيــة ومخلوقات وأرواح نورانية، وأحداث كلها تدور حول شخص قد بدأ بعدُ يشاهد أشباحًا من الجن والمخلوقات والأحداث الغريبة.

يقاطعها عادل:

- انتظري.. وما علاقة هذا بسؤالك أو بما يحدث؟!

- العلاقــة يا عــادل عندما تعــرف أن كل هذه الأحداث تحــدث لطبيب في الخامسة والثلاثين من عمره يعمل في التشريح.

- ماذا؟ لا.. لا، أكيد اختلط عليكِ الأمر يا دكتورة، مســتحيل طبعًا! لا، الفكرة نفسها مستحيلة.

- يا عادل، هذا ليس المهم في الأمر، الأحداث تقع بعد مرض الطبيب، ودخوله فــي حالة غيبوبة إثر حادث، وقد فقد في الحــادث بعض الأصدقاء والزملاء. هو أيضًا دخل في غيبوبة لمدة شــهور، وعندما اســتعاد وعْيَه اكتشف رحيل زوجته وأختهــا وزوجها وأولادها، لكن عقله قد رفض ذلــك وتعامل على أن الحادِث لم يقع من الأســاس، وبدأ يســترجع حياته قبل الحادث، فقط حالة إنكار، وللأسف ســاعد فيها زملاءه في العمل؛ حيث لم يتحدث أحــد أمامه عما حَدَثَ، كل هذا جعل الحالة تستمر في الإنكار الشديد.

قبل أن تنطق بكلمة أخرى قاطعها بصرخة هزت أركان المكان:

- أنتِ تكذبين! أنتم جميعًا تكذبون، نجلاء لم تمُتْ، هي حزينة فقط، وسوف أذهب إليها الآن، نجلاء لم تمُت، نجلاء حزينة فقط، ذَهَبَتْ وسوف تعود!

تبكي (هالة) بكاءً شديدًا، ويســقط (عادل) على الأرض، وهنا تعلن الحقيقة نفسها، ويستطيع أن يسترجع الأحداث، ولماذا كان يتحدَّث مع زوجته في الفترة الأخيــرة وهي لم تســتجب إلى ندائه؟ وتذكر حديث العجــوز له عندما تحدثت معه في أول حديث وقالت: ألم تكُن مريضًا من فترة وعلى وشــك أن تموت ثم شفاك الله؟!

انصرفــت (هالة) إلى منزلها، وتركت (عادل) مُمــدَّدًا على الأرض في صدْمة، ووضعت بجانبه كتاب (الموتى يهمسون أحيانًا).

أشــرقت الشــمسُ بنور ربها في اليوم التالي، يفتح (عادل) عينيه فيجد أمامه الشــيخ (تهامي)، يُســاعد (عادل) في النهوض، وعندها أخذ (عــادل) يبكي بكاءً شديدًا وهو يطلب منه أن يتصل ببيت أهل زوجته ليسأل عنها، ولكن نظرة الحاج تهامــي كانت كفيلــة بتأكيد الحقيقة التي قد وصل إليهــا؛ وهي أن زوجته نجلاء قد انتقلت إلى العالم الآخر، وأنَّ كل ما حَدَثَ كان من نســيج الخيال، وأن نكران الحقيقــة لن يُعِيدها مرة أخــرى إلى هذا العالم. ولكن كان الســؤال: هل هناك شخصيات أخرى مِن العالم الآخر؟ وكيف تحدَّث الكتاب عن نفس الأشياء ونفس الأفعال ونفس المهنة؟! هناك شيء غيرُ عاديٍّ في هذه القصة! هناك لُغْز أو بابٌ جديد من الأبواب التي لا بُدَّ أن تُفْتَح مِنْ جديد.

فــي الليل انقطعتِ الكهرباء وانهمرتِ الأمطار بلا انقطاع خارج نوافذ غرفتي. شــعرت بالبرد الشديد بسبب هواء شهر يناير البارد. ولم أكد أُصَدِّق أنني انتهيت من كل هذا الإنكار، وأصبحت الحقيقة واضحة أمامي.

جمعــت الذكريات حولي، وحاولــت أن أبعث الحياة في الحلم الذي صنعته. أوشــكت شمعتي أن تحترق كليًّا. وشعرت بالوهن والإعياء. وعندئذٍ -على بصيص الضوء الخافت- رأيت على الحائط وانعكاس ضوء الشمعة خيال أشخاص وشخصًا ضخمًا يفتح عينين حمراوين مرعبتين، وأخرج من فمه نَفَسًا. وتحركت ذراعاه وساقاه.

لقد دبَّت فيه الحياة!

بدأتُ أبكي في الحال تقريبًا. لم تكن دموع الخوف كما قد يخال لك. لا، لقد بكيت ندمًا.

صرخت: «ما الذي فعلته؟! يا للكارثة!».

لقــد اختــرت أن أتحكم في أحلامي لكن الأمر تحــوَّل إلى كارثة. كيف أصف الرعــب الذي انتابني؟! لقد تخيلتُ هذا المارد وهو على الحائط، وهو ما زال في عقلي قبل أن أبعث الحياة فيه، لكنني لم ألحظ أنه كان شــديد القُبْح. والآن بعد أن أصبح على قيد الحياة، ليس بوسعي أن أفعل أي شيء سوى الندم على أفعالي.

كان بَشِعًا!

ولم يكــد جلدُه يُغطِّي عضلاته وأوردته، وكان شــعرُه أســود ومسترســلًا، وأسنانه بيضاء لؤلؤية، بينما كانت شفتاه غليظتين سوداوين.

لقد قضيتُ عامًا أصنع هذا الوهم، والآن بعد أن انتهيتُ تلاشت روعةُ حِلْمي كما تلاشى ضوءُ شمعتي. امتلأ قلبي بالرعب والاشمئزاز. ولم أستطع تحمُّل النظر إليه، فاندفعت وألقيت بنفسي في فراشي. لم أستطع أن أخلد إلى النوم بسهولة، وراودتني أحلام سيئة.

وعندما اســتيقظتُ مِنْ نومي وأنا أتصبب عرقًــا بغزارة كان هذا المارد يقف فوق رأسي!

أصــدر أصواتًــا، ربمــا كانت محاولــة منه للتحــدُّث. ثم رفع يــده العملاقة ليمســكني، لكنني خرجتُ من الغرفة بأقصى سرعة مُمكنة. ركضت عبر السلالم، ثم خرجت من الباب ومنه إلى الشارع. وقفت لأنظر إن كان يتتبعني، ثم ركضت، أمضيت بقية الليل أجول في شوارع القاهرة، وأُنصت إلى وقع الأقدام ورائي.

تُرى ماذا كان يريد هذا الكائن الشــنيع مِنِّي؟ وهل هو مِنْ خيالي أو هو مِنْ أحلامي الكثيرة؟ هل هو حقيقي أو هو الحلم الذي صنعته بنفسي؟

فـي هــذه الليلة، كنت أرتعب عند سـماع أي صوت، وأظـن أن الحلم الذي منحته الحياة مرتكبًا خطأً بشـعًا على وشـك الإمساك بي. تخيلت يديه الكبيرتين تلتفان حول عنقي.

كيف انتهى كل شـيء إلى هذه الحال بالغة السـوء؟ لقـد تحول حلمي إلى كابوس!

مشيتُ طوال الليل وسط الأمطار، ولم أجرؤ على العودة إلى شقتي.

وأخيرًا انتهى بي المشـي عنـد أحد المحلات على الجانـب الآخر من الحي؛ حيث كانت تقف عربة سـوداء. انفتح باب العربـة وإذا بي أرى صديقي العزيز يحيى.

صاح يحيى: عادل هلال! كم أنا سعيد لرؤيتك! يا للحظ!

- كيف عرفت بأمر وصولي؟

للحظة نسـيت تعاسـتي وأمر أحلامي ومرضي، وبدَّد نسيم الصباح البارد كل أخطائي؛ المرة الأولى منذ شهور أفكر في أمر آخر بخلاف أشباحي.

صِحْتُ: يحيى! ثم عانقته بقوة وأجبته: لا، لم أعرف أنك آتٍ. ماذا تفعل هنا؟ سعدت برؤيتك للغاية.

ابتسم وقال: أخيرًا سمح لي أبي بالذهاب إلى أمريكا. أتُصدِّق هذا؟

أجبتــه: هذا رائـع! كيف حال أسـرتك؟ لا بُدَّ أنــك مُحمَّل بالأخبــار الجيدة والسعيدة. كيف حال والدتك ووالدك؟

توقفت وبصوت منخفض قلت: كيف حال عايدة؟

أجاب:

- لا تقلق يا عادل. جميعهم بخير، مع أنهم يتمنون لو كنت تراسلهم بشكل أكثر من هذا.

ثم لكمني في كتفي مازحًا ونظر إليَّ وقال: يا إلهي! أنت هزيل وشاحب، هل أنت مريض؟!

أجبته: كنت أعمل ليلَ نهارٍ على إحدى القضايا. نسيت كل شيء حَدَثَ لي الليلة. وقلتُ في عُجالة: دعنا نعُدْ إلى منزلي لنتناول إفطار شهي!

ركبت العربة معه إلى شقتي، وبعدما بلغنا المبنى الذي أُقِيم فيه تملكني الخوف؛ ماذا لو كان المارد العملاق هناك؟ أعرف أن يحيى لا يمكن أن يراه، لكن لو حاول التحدُّث معي ماذا أفعل؟ وماذا سيظن يحيى بي؟

توقفت العربة أمام باب العمارة، وبدأ يحيى يركن السيارة وقلت له: انتظرني هنا دقيقة واحدة، أودُّ أن أُرتِّب الشقة سريعًا.

ردَّ يحيى: أوه يا عادل، لا أكترثُ بالفوضى. أنا مُتعب وأودُّ أن أجلس في مكان، لقد تعبت من السواقة.

قلت له مُتوسلًا: أرجوك، دقيقة واحدة فحسب. ثم ارتقيت السلالم في لمح البصر. وبلغت باب شقتي اقشعرَّ بدني. استجمعتُ كل شجاعتي، وفتحت الباب على مصراعيه.

توقعت أن أجد شبحًا وأن تلك المخاوف ستطاردني دائمًا. تنفست الصُّعَداء عندما وجدتُ شقتي خاوية؛ لقد رحل المخلوق البشع!

صحتُ من البلكون: يحيى، هيا اصعد.

أحضرت وجبة إفطار ضخمة، فتناولنا الطعام معًا، وأخبرني يحيى بكل شيء

عن رحلته؛ كانت الرحلة من سـيوة في غاية الإثارة! استمرَّ يتحدث ويتحدث عن الناس الظرفاء الذين التقاهم في أثناء الطريق. ابتسـمت واستمعت إلى قصصه. كم كنت أفتقد صديقي يحيى! فقد أنسـتني أشـهر عديـدة أمضيتها منعزلًا في عملي وغرفتي متعة الصداقة البسيطة.

بعدما انتهينا من تناول الطعام لم أستطع أن أهدأ؛ فقد تحرَّر شيء ما بداخلي، ولم أستطع كبح جماح نفسي، ثم انفجرتُ في الضحك، ولم أستطع أن أتوقف.

عندئـذٍ ظننتُ لحظـةً أنني رأيت المخلوق فقلت وأنا أبكي: لا تسـألني عما أفعـل. ثم وضعـتُ يدي على عيني وصرخـتُ: «إنه هنا! هنا، يـا إلهي أنقذني! أنقذني!». وكنت أرى في ذهني كل الأشباح التي ظهرت في حياتي، وقد أمسكت بي وراحت تهزني بكل قوة. قاومتهم، وعندئذٍ سقطتُ على الأرض.

أسرع يحيى إليَّ، ولا بُد أنه ساعدني في الوصول إلى فراشي، لكنني لا أتذكر أي شيء.

أُصِبت بحُمَّى لازمتني لأسـبوع. اعتنى يحيى بـي عناية بالغة، وقرر ألا يخبر أسـرته في الحال؛ لأنه يعرف أنهم سـيقلقون بشـدة عليَّ، وأكثرهم هي عايدة التي حاولت الانتحار في يوم من الأيام بسـبب خوفها عليَّ؛ حيث مَنَعَتْ نفسـها من الطعام عندما كنتُ مريضًا بسـبب خلاف كان بيننا وبعدها عَلِم الجميع حبها الشـديد لي، وأنا أيضًا كنت مشدودًا لها، ولكن لم يصل الأمر إلى الحب، وعندما ظهـرت (نجلاء) لـم أتذكر أي أحد مرة فـي حياتي، ومع كل هـذا ما زال يحيى وأسرته يهتمون بي. حقًّا! لا ينشد الشخص صديقًا أفضل من هذا!

مـرَّت الأيام دون أن أشـعر، وملأت أفكار سـيئة أحلامـي، ومناظر وأصوات

الأشـباح التي صنعته. وتملكني الخوفُ مما سوف يأتي من أحلامي، ولا أستطيع أبدًا إلغاءه وكأن لم يكن. تقلبت في فراشي كثُريًّا ليلة تلو الأخرى. ومكث يحيى إلى جانبي ليل نهار، وكان يطعمني الحساء ويقرأ لي. تملَّكتِ الحمى مني بشدة حتى إن الأيام كانت تمر ولا أستطيع أن أنهض من الفراش، فأصبحت غُرفتي هي عالمي بأكمله، ونافذتي هي الطريقة الوحيدة التي عرفت منها أن العالم لا يزال موجودًا.

وبالتدريـج، بعد الكثيـر من نوبات الفزع، بدأت أشـعر بالتحسُّـن، وكانت القاهرة في ذلك الحين في ذروة فصل الشتاء.

ما الذي حَدَثَ للمارد؟ وأين هالة؟ وماذا حَدَثَ لها؟ هل مِنَ الممكن أن تكون هي الأخرى حلمًا من أحلامي أو شبحًا من العالم الآخر؟! طردتُ كل هذه الأفكار من ذهني، وحاولتُ أن أفكر في حياتي السابقة على بدء تجاربي. كم استمتعت بوجـودي بالخارج. كم لهونـا أنا ويحيى وعايدة حينما كُنَّا صغارًا! والآن تحسَّـن مزاجي للغاية بسبب هذا الجو اللطيف جدًّا.

قلت في صباح أحد الأيام: يحيى! لقد أحسـنت إليَّ أيما إحسـان. وكان من المفـروض أن تبـدأ بالفعل عملك، لكنك أمضيت فصل الأسـبوع كله تعتني بي. ابتسـم يحيى لكنه لم ينبس ببنت شفة؛ لذا استرسلت في كلامي: كيف سأرد لك هذا الإحسان؟

ردَّ يحيى: لا حاجةَ إلى هذا. كُل ما عليك هو أن تتحسَّن؛ هذا هو كل ما يهم.

سكت دقيقة ثم قال: لكن ثمة شيء!

ارتعدتْ فرائصي تحت الغطاء. تُراهُ سيسـألني عن حياتي أو فترة مرضي التي لا أتذكر منها شـيئًا؟ أو لعله رأى الكتب في مكان ما؟ لعله عرف كل شـيء! لن

أســتطيع أن أتحمل إذا اكتشف يحيى الأمر، فماذا سيظن بي؟ هل سيخبر أسرته؟ وهل سيخيب أملهم هم أيضًا في؟

لاحظ يحيى هلعي فقال متوســلًا: أرجوك لا تنزعج. أريدك أن تبعث رســالة إلــى عملك، فهم يريدون أن يطمئنوا عليك؛ فالقلق يســتبد بهم بشــأن صحتك. تنفســت الصعداء وقلتُ: هل هذا هو كل ما في الموضوع؟! ونزعت عني الغطاء وجلست في الفراش وقلت: بالطبع! لا أريدهم أن يقلقوا بشأني بعد الآن؛ لأنني تحسنت كثيرًا جدًّا.

أســرع يحيى نحو الطاولة، وفتح جهاز الكمبيوتر الشخصي وقال: ثمة إيميل هنا من عايدة. سأخرج بعض الوقت، وأدعك لتقرأه بنفسك.

جلســت على طاولتي وفتحت الخطاب في هــدوء، لا أعلم ماذا أتوقع، فقد مَرَّ زمن طويل منذ أن قرأت رســالة من عايدة. ومجرد التفكير في مدى سعادتي لسماع أخبارها.

توسلت إليَّ عايدة في خطابها كي أكتب إليهم ولو كلمة واحدة، فقد مَرَّ زمن طويل منذ أن سمعوا أخباري.

وأخبرتني وسط كلامها الجميل كم تاقت إلى رؤيتي والحديث معي والذهاب إلى الأوبرا مثل أيام الشــباب، لكنها كانت تحاول ألا تفعل من أجل نجلاء إلى أن أوحت لي كلمات الخطاب بالأخبار الســارة فحسب؛ فقد بلغت ابنة أختها مريم السادسة من العمر، وأخبرتني كم أصبحت جميلة وشقية مثلي وأنا صغير.

كما أخبرتني بأنها أيضًا من برج الأسد، وذكرت كم كنت سأفخر بها لكونها من نفس شهر ميلادي، وأخبرتني بذكائها، وماذا تفعل مع مربية الأطفـال (أم حسن)،

وكم هي مسرورة بوجود طفلة إلى جانبها.

كتبت عايدة: «ســارة أُخْتي سعيدة للغاية بوجودها معي، ولا سيما أن مريم مشاغبة للغاية».

وأكملت بقية الرســالة بأخبار محلية حول أصدقائنــا والجيران بحي الزيتون ومصر الجديدة، اســتمتعت بكل كلمة في الرسالة، وأنهت عايدة الرسالة بطلبها مرة أخرى أن أرسل إليهم.

يا لها من فتاة جميلة عذبة! ولكم افتقدتُها في تلك اللحظة. وشــعرت بحجم حماقتي لعكوفي على عملي البائس. كنتُ قد نســيت الأمور المهمة في العالم؛ حب الأصدقاء والعائلة.

رددتُ على الرسالة في الحال، وأخبرتها كم أتوق لها وكم أشتاق إلى الحديث معهــا، وعندما انتهيتُ مِن كتابة الرســالة أغلقت الجهــاز. وذهبت إلى الفراش، وبعد يومين آخرين استطعت أن أغادر غرفتي.

فــي الجانــب الآخر كانــت (هاله) انتهــت من قــراءة (المــدن المفقودة)، وقــد اســتطاعت أن تعرف أين يقع منــزل الدكتور الطوخي الكائــن في فكتوريا الإســكندرية. وقد علمــتْ من يحيى عنــد اتصالها بمنزل عادل أنه قد تحسَّــن، وأصبح في صحة جيدة، وبعثت برسالة تقول إنها قد وجدت منزل الطوخي، وأنها قد اتصلت بإحدى بناته، وهي في انتظارهم في الإسكندرية.

قررنا السفر إلى الإسكندرية في مساء هذا اليوم.

في القطار انتبهت فجأة على رنات الموبيل. مرت نصف ساعة منذ آخر مرة، نظرت إليها أسألها عن الوقت. ولا يزال القطار يقطع ظلمات الليل مِنْ حوله في ثقة واستقرار.

أسندت ظهري إلى كرسي القطار.. استرعى انتباهي بلا شك ذلك الهدوء المخيم على أنحاء القطار، لا حديث، لا همسات، لا ضحكات . لا شيء على الإطلاق أكثر من صوت القطار ، وهو يصطدم بقضبان حديدية ، ويرتفع معها وينخفض، مع كل اصطدام نظـرت إلى الجالسـين، كانوا ما بين نائم أو شـارد أو يحمـل الهاتف المحمول متصفِّحًا التطبيقات، أو يشاهد فيديو إحدى الفضائح التي قد انتشرت في حياتنا أو يتحدث أو ومُسترخٍ ونائم.

تمنيتُ أن يحدث أي شـيء يُبدِّد ذلك الصمت حتى لو يمر بائعُ المشروبات ذو الضحكـه الصفراء و يسـألني عما أريد. كانت (هالة) في حالة من الشـرود الغريب، سألتها حتى أفتح معها أي حوار يجعل الوقت يتبدَّد:

- هل أنهيتِ القراءة؟

- نعم، لكن هناك أشـياء كثيرة لا أفهمها؛ أين تقع مدينة البرونز أو النحاس؟ وهل هي خيال؟ والسؤال الأكثر ماذا حَدَثَ للجنود الذين حاولوا الوصول إلى سور المدينة؟ ما الذي جعلهم يلقون بأنفسـهم داخل المدينة؟ ولماذا كان كل شخص حاول الصعود إلى سـور المدينة عندما ينظر إلى داخل المدينة يضحك ويصفق، ويلقي بنفسه؟! ماذا شاهد داخل المدينة يجعله يفقد توازنه هكذا؟! هناك لغز!

- نعم، أنا أيضًا وقفت عند هذه القصة، وقد أرسـلت رسـالة إلى (عبد الكريم) الساحر، لكن لم يرُدَّ عليَّ حتى الآن.

- وأين تقع؟

- أظن لم يعثر عليها أحد حتى الآن، ولكن هناك شـيء آخر حدث لك جعلك بهذا الشـرود، ألا تريدين أن تتحدثي في هذا الأمر؟! هناك شـخص يرسـل إليه

رســالة تهديد، حدث هذا بعد أن كنت أسأل عن الدار والكتب التي طُبِعَتْ وعن صاحبها، كيف هذا ومتى حدث؟ ولماذا لم تخبريني بهذا من قبل؟!

- لقد تذكرتُ أن الموضوع مجرد شخص يعرف شيئًا عن الدار والكتب، ويحاول أن يفعل ذلك من أجل أن يأخذ بعض المال فقط، ولكن الموضوع تخطى هذا؛ حيث بدأ يظهر لي شخص في كل مكان أذهب إليه، وعربة سوداء تتبعني في كل مكان، حتى في محطة القطار كان هناك شخص يتبعنا على الرصيف المقابل من القطار.

- ماذا؟! هذا أمر لا ينبغي لنا أن نسكت عليه، عندما نصل إلى الإسكندرية سوف أحجز في فندق أعرفه جيدًا، ثم في الصباح نذهب إلى منزل الطوخي وبعدها إلى الشرطة.

كان القطار حتى الآن لم يصل إلى وجهته بعد...

قــررتُ أن أدخلَ الحمَّــام. الباب مُغلق! انتظرت. مرَّت قُرابة ربْعُ ســاعة ولم يخرج أحد. لا بُدَّ أن أحدهم قد نام بالداخل!

واصلتُ السير حتى العربة الأخرى. فتحتُ باب العربة. كان الهواء باردًا يدخل عبر فتحات النوافذ المتراصة على الجانبين، وكان الظلام شديدًا. وفجأة ظهر هذا المخلــوق الغريب مــرة أخرى، ولكن في هذه المرة كان واضحًا مُتجســدًا وليس خيالًا على الحائط! يا الله! ما هذا الوجه؟! عيون حمراء، شعر أسود طويل، أسنان بيضــاء، ولكــن بلا أنف؛ هناك نقطتان وآذان تشــبه آذان فيل كبيرة، وأرجل على ثلاث أصابع مثل رجل البطة.

أســرعتُ إلى الكرســي. كانت (هالة) قد ذهبت في النوم، وعقرب الســاعة قد أشــار إلى الحادية عشرة. أصبح الطقس شديد البرودة وقد اقترب القطار من الوصول إلى وجهته.

بدأ الليل يُرخِي سدوله عندما وصلنا إلى فُندقنا، وخرجنا في جولة قصرية ثم تناولنا وجبتنا الأولى. كان من المقرر أن أول شـــيء نفعله في الصباح التالي هو أن نتحرك إلى منزل الطوخي، وفجأة بدأت عاصفة وأمطار، وكانت الرياح تضرب النوافذ بقوة بدرجة شعرنا معها بشيء من الخوف. وما إن حَلَّ الظلام حتى تلاشى هدوئي وســعادتي. وبعدما خلــدتْ (هالة) إلى النوم في غرفتها تســارعت إلى ذهني مئات المخاوف.

كنــت متوترًا ومنتبهًــا، فكان كل صــوت يُرْعبني لكنني لم أتحــرك، وظللتُ مســتيقظًا أحرسها بكل طاقتي بحثًا عن أي شــيء غريب، وتفقدت كُلَّ رُكْن وكل غرفة مفتوحة.

مســحت كل ممرات الفندق، فلم تكن هناك أي أمارات تشــير إلى وجود أي شيء غريب، فظننتُ للحظة أنَّ كُلَّ شيء سيكون على ما يُرام، وعندئذٍ سمعت صرخة. ركضت عبر الســلالم إلى غُرفتها، فوجدتُها مســتلقية على فراشــها. أوه! لقد تحوَّل التهديد إلى حقيقة.

بثــأره! قــد اعتُدِي على المحبوبة (هالة) التي لم تُؤذِ أي شــخص في حياتها. لقد نفذ المعتدي وَعِيدَه ليؤلمني، وحكم عليَّ بأن أقضي بقية حياتي بائسًا بهذا الذنب طول حياتي. أنا لم أستطع أن أحمي أعزَّ أصدقائي مثل الحلم الذي صنعتُه.

هرعــت لأفتح النافــذة لأرى هل بمقدوري الإمســاك به. كان الهــواء باردًا، واندفعت الأمطار إلى داخل الغرفة. رأيت شخصًا يقف على الأرض خارج النافذة. صرخــت: «قف أيها الوغد! لقــد اعتديت على صديقتــي!». حضر جمْع من

الناس إلى الغرفة لدى سـماع صراخي، فصحتُ: «هذا الرجل اعتدى على زميلتي! أسرعوا، لا بُدَّ أن نمسك به».

ركض الرجال في الخارج، ومكثتِ النسـاء للاعتناء بحالة (هالة). حاولنا اقتفاء آثار الشخص دون جدوى. لم نستطع العثور عليه. لم أستطع تحمل الأمر وغشي عليَّ. حملني بعض الأشـخاص إلى باب الفندق، وحضر طبيب الفندق، وكشـف علـيَّ، وفي أثناء هذا حضرت الشـرطة والنيابة لتُحقِّق فـي واقعة (هالة). وبعد مرور فترة من المداولة والتحقيقات انصرفت الشـرطة. ذهبت إلى الطبيب وقد أخبرني بأن (هاله) قد أخذت حُقنة مهدِّئة ونامت الآن، وأن حالتها مستقرة، ولم يحدث لها أي ضرر جسدي.

بعـد دقائق إذا بعاصفة عنيفة هوجاء تهُب دون سـابق إنذار تقريبًا، وصوت الرعد كان عاليًا، والسـماء تتقد بوميض البرق. وقفت عند الباب الزجاج للفندق وحدقتُ في السُّحُب أتابع العاصفة. وفجأة قصف الرعد بقوة في كل الأرجاء!

وفي الليلة التي سبقت يوم رحيلي أنا وزوجتي جلسنا أنا ونجلاء في المطبخ نَحْتَسِـي مشروب الشكولاتة الساخنة نتسامر. تذكرنا قصصًا من طفولتنا، وتحدثنا عـن أحلامنـا، ولم يُرِد أحد منا أن ينام؛ لذا سـهرنا طوال الليل. واحتسـينا طوال الليل بلا انقطاع قدحًا تلو الآخر من ذلك المشروب الحلو الدافئ. وعندما أشرقت الشمس في الصباح التالي لم يُرِدْ أحدُنا أن يفارق الآخر.

وبعـد سـاعتين كانت الحقائب جاهـزة وموضُوعة في العربـة. وحان وقتُ الرحيـل. ولم أتذكر شـيئًا، ولا أريـد أن أتذكر يوم الحـادث، وكل حزني أنني لم أتمكن من حضور جنازة زوجتي.

نظـرتُ من جديد إلى سـاعتي. الوقت يمُرُّ سـريعًا، وأصبح الطقس شـديدَ البرودة. ذهبت سريعًا إلى غرفتي، وفي دقائق كنتُ على فراشي ونِمتُ نومًا عميقًا.

في الصباح التالي، وفي اللحظة التي بدأت فيها الشمس تشرق، تسللت خارجًا مـن الباب الأمامي. انطلقت بخُطـى ثابتة نحو البحر على أمـل أن يُصَفِّي هواء البحر المنعش البارد ذهني. وبعد مرور وقت قليل اتجهت صوب الطريق المؤدي إلى حي المنشـية؛ وهو حي شـعبي بكل معنى الكلمة؛ حلقة السمك، ومحلات الأكل، والمقاهي في ميدان المنشـية من أكبر وأشـهر الميادين في الإسكندرية ومصر كلها لأحداث سياسية معروفة.

بَدَتِ الطرق مُمهدة تحت حذائي، وكان الجو معتدلًا ومشرقًا. وخفَّت الهموم التـي أحملها كلما ابتعدت أكثر نحو البحر، الذي كانت أمواجه شـاهقة الارتفاع، وبدت الأمواج كأنها تعلو قمة كل منها أهرامات عملاقة.

حتى إنني لم أملَّ أبدًا من النظر إليها، مهما طال الوقت الذي سِرْتُ فيه على هذا الدَّرْب. ثمة شيء سِحْري في بلادي. شيء يجعلك تحبها مهما حَدَثَ.

لقـد وقعت الكثير مـن الأحداث في حياتـي، وتوالتْ بذهني أفكار بشـأن الأحداث التي وقعت طيلة السـنوات القليلة الماضية؛ موت أمي، والأوقات التي قضيتُها في العمل، وأصدقاء الجامعة، وتجربتي البشـعة، ورؤية الأشـباح، وعالم السـحر والموتى، فأدركت أن الأمور لن تعود أبدًا لسـابق عهدها، ولن أعود أبدًا ذلك الصبي الذي كان ينظر إلى المطر والرعد في تعجُّب ودهشة.

هطلت الأمطار من السـماء، لكنني واصلت المسير. وفي الوقت الذي بلغت فيه كورنيش المنشية كان قد حَلَّ وقت الظهرية تقريبًا.

ثم انطلقت. سـرتُ نصف سـاعة في الحي ثم جلسـت على إحدى الصخور المطلة على شاطئ البحر.

وبعدما استرحتُ هناك لبعض الوقت، ظننتُ أن لديَّ طاقة كافية تُمكِّنني من الوصول إلى ميدان السـاعة فيكتوريا ومنزل الدكتور الطوخي، لكنني اسـتغرقتُ ساعتين للوصول إلى الجانب الآخر، ولكن ممارسة المشي نفعتني بشدة.

وصلـتُ إلى منزل الدكتور الطوخي، وعلى بـاب المنزل يافطة مكتوب عليها (منـزل الطوخي الكبير). فتح الباب سـيدة في الثلاثينيات من العمر، من شِـدة جمالها لم أستطع أن أُعَرِّفها بنفسي وارتبكتُ مثل الطفل. إلهي ما هذا الجمال؟! كان شـعرها الذهبي الطويـل تاجًا من الذهب، وعيونهـا الزرقاء مثل عيون أمي رحمها الله، وابتسامة شفتيها القرمزية، وصوتها الذي يشبه أنغام الليل الهادئ في ليالي الصيف. قالت: هل أنت الدكتور عادل؟

ولأول مرة أسمع اسـمي بهذا الهدوء وتلك السكينة النفسية التي نزلت عليَّ بمجرد نطقها اسمي!

قُلت: نعم.. نعم، أنا هو. ابتسمتْ وقالت: تفضل، أنا الدكتورة هويدا الطوخي، تفضل.

بعد دخولي المنزل رأيته كأنه مُتحف صغير؛ في كُلِّ رُكْن من الأركان تحفة أو تمثال، أو لوحة من اللوحات العالمية، وقد أبهرني لوحة أعرفها جيدًا؛ وهي (اليوم الأخير في بومبي) بريشـة الفنان الروسـي (كارل بريو لوفي)، رسـمها بين العام ١٨٣٠- ١٨٣٣ عـن ثوران جبـل فيزوف في عام ٧٩ بعد الميلاد الذي غلف مدينة بومبي بالرماد البركاني، وقتل معظم سـكانها، وقد لاحظت هي تعلُّقي الشـديد بهذه اللوحة دون غيرها من الموجودين.

قالــت: توقعتُ منك أن تُعجب بدروس التشــريح مع الدكتور (تولب) للفنان (رامبرانت). على ما أظن هو تخصصك؟

- نعم هو ذلك، لكن منذ دراســتي وأنا أشاهد لوحة التشريح، أنا من معجبي (رامبرانت)، ولكن دائمًا أشــاهد اللوحة في الكتب أو الأفلام، وهذه المرة الأولى التي أقف أمام نسخة منها على الحائط. أنتِ أكيد تعلمين أن الروسي (كارل بريو لوفي) أعماله غير مشهورة في مصر مثل (رامبرانت)، ومن النادر أن تُعرض لوحة له في المعارض.

- هذا صحيح يا دكتور، أنا معك ولكن من الرائع أن تهتم بالرســم والفنانين، وهذا بعيد عن عملك، آســفة ليس قصدي التقليل منك، لكن أظن عمل التشريح يســكن المشاعر والأحاســيس الفنية لدى الشــخص. لا أعرف، ولكن أظن أن مَنْ يعمل في هذا المجال فإن الاتجاه الســائد أن يكون مُتدينًا بســبب التعايُش مع الموت والقتل والدم وهكذا، أليس كذلك؟

- مِن الممكن هذا، ومِنَ الممكن العكس أيضًا.

- كيف هذا يا دكتور؟

- عندمــا يبدأ الشــخص في أول حياتــه العَمَلِية ويدخل إلى عالم التشــريح والجثث والموتى يقف مع نفسه كثيرًا ويتقرب من الله، ويهتم بالعبادة والتديُّن لكــن بعد مرور الوقــت -وهذه عادة النفس البشــرية- يصبح كل شــيء عاديًّا، ويصبح العمل مُجرد روتين لا أكثر.

- لكن هل من الممكن أن أسألك عن تخصصك الطبي؟

نظرتْ إليه بعيونها الزرقاء نظرة الواثقة من نفسها ومن كل أسلحتها وقالت:

-أنا دكتورة في الفلسفة والعلوم الإنسانية.

- الآن أفهم لماذا تهتمين بالتفاصيل.

قاطعنــا صوت الخادمة وهي تجــر عربة الطعام والمشــروبات وبعض قِطَع الجاتوه. كان المنزل فســيحًا فخمًا، ولكن كل هذا لم يجعلني أســتطيع مجاراتها في الحديث عن الفن والأوبرا والتاريخ الإنساني؛ لأنها كانت -في الحقيقة- مثقفة جدًّا، ما جعلني أكتشــف جهلــي وصِغَر حجمي الفكري. نعم، أنا أحمل شــهادة الدكتوراه، ولكنى لم أقرأ في غير مجالي أبدًا من يوم تخرجي، لا أتذكر أنني قرأت في الأدب أو الفن أو الفكر أو التاريخ والسياســة، ولم أقرأ رواية في حياتي غير (المعطف) للكاتب الروســي (نيقولاي غوغول)، وتأثرت بها وبكيتُ، وكان عمرى وقتها ســبعة عشر عامًا، ومن بعدها لم أقرأ أي رواية، لا عربية ولا عالمية، ولكن كنتُ أحب الســينما العالمية، وخصوصًا أفلام الخيــال العلمي والفانتازيا. أخذني التفكير حتى قطعت هذا الشرود بصوتها الهادئ وهي تقول:

- تفضَّلْ يا دكتور اشرب المشروب قبل أن يبرد.

أمسكتُ الكوب ونظرتُ إليها وأنا أقول: أظنُّ أنكِ تعلمين سبب زيارتي اليوم؟

- نعم، لقد تحدثتُ مع الدكتورة هالة، وشرحت لي كل شيء، لقد اتصلت بها في الصباح وعلمت ما حَدَثَ معها.

- إذن من الجيد أن أســألك حتى لا يتأخر الوقت؛ أنا لا أريد أن أُضَيِّع وقتك. بالطبع كنت أكذب؛ فأنا لا أريد أن ينتهي الوقت ولا الحديث معها، ولكن فضولي لمعرفة ما تعرف جعلني أُسرع في أسئلتي لها! فكان سؤالي الأول:

- ماذا حدث للدكتور الطوخي؟

- أبي -بكل بساطة- اختفى من المنزل.

- ماذا؟

- نعم، اختفى منذ عشـرين عامًـا. بعد وفاة أمي بسـنوات دخل مكتبه في المسـاء، وبعدها لم نجد له أي أثر غير حفرة فـي أرض المكتب. بحثنا أكثر من خمس سنوات ولكن لم نجد له أي أثر، فتوقفنا عن البحث. والآن في يوم العاشر من أكتوبر من العام الماضي مرَّ عشرون عامًا على اختفاء أبي.

- نعـم.. نعـم، ولكن هل تعلمين شـيئًا عن دار (إنجاز للنشـر) التي طبعت كتابَ والدك؟

- نعم، أعرف مَنْ يملكها الآن.

- الآن؟!

- هل ما زالت تعمل؟!

- نعم، ولكن من لبنان.

- لبنـان؟! لا، أريـد أن أفهم من فضلك، لقد أُغْلِقَت الدار منذ عشـرين عامًا، هذا ما نعرفه!

-نعـم، أُغْلِقَـت الدار هنـا في مصر، وظَلَّ فـرع لبنان، ولكن بعـد أن تُوفِّي (مايكل) ابن صاحبها (ملاك) كتبها إلى صديقته اللبنانية، ونشـرت بعض الكتب، ثم تُوفِّيت وبِيعَت الدار، وغير المالك الجديد نشـاط الدار، وهكذا نشـرت بعض النسـخ من كتب أبي، وقد نسـخت بعض النسـخ القليلة إهداء إلى روح أختي رحمها الله.

- نعم.. نعم. هل تعرفين أي شيء عن مدينة النحاس أو البرونز؟

-كل ما أعرفه هو الموجود في بعض الكتب والروايات.

- ماذا تعرفين؟

نظرت باستغراب وقالت:

- وما هو المهم في القصة؟

- مجرد فضول أن أعرف ما حَدَثَ في القصة، وأكثر شــيء هو ما ســبب إلقاء كل مَنْ حاول أن ينظر من ســور المدينة إلى الداخل، وما هو السِّــر في الفرحة والسعادة والبكاء من شدة الفجأة؟

- انظر، ســوف أحاول أن أســاعدك، لكن اعلم أنا لا أحــب الحديث في تلك الأمور، ويكفي ما حدث لنا بسبب كل هذا العبث. كل ما أعرفه من بعض الكتب والمصادر أنها مدينة خيالية، ولم يصل إليها أحد، هذا ما أعرفه.

كانــت قد بدا عليها الاضطراب، وظهر من نبرات صوتها أنها لا تقول الحقيقة. قُلت لها: يا دكتورة، أنا لا أريد أن أضغط عليكِ، وأشــكركِ جدًّا على هذا الحديث وهــذا اللقاء، تحياتي لكِ. وبدأتُ في الاســتعداد للانصــراف ولكن وَقَعَتْ عيناي على شيء؛ صورة لرجل عجوز يُشبه الصفات التي تحدث عنا عبد الكريم الساحر، توحي بأنه الدكتور الطوخي، أما الشــابة التي بجواره في الصورة فأنا أعرفها؛ لقد كانت ســلوى شــبح العروسة التي ظهرت في شــقتي. نعم، هي! صرخت بصوت عــالٍ: مَنْ هــذه؟! مَنْ هذه؟! نظرت إليَّ هند نظرة المجنــون ثم قالت: ما بكَ؟! ماذا حدث؟!

صرختُ: مَنْ هي؟!

قالت: هذا أبي الطوخي، وهذه أختي الكبيرة سلوى.

صرخت أكثر: لا! مستحيل؛ إنها ميتة، إنها شَبَح.. شَبَح، لقد ظهرت أمامي وهي تحترِق في يوم زفافها، أليس كذلك؟ ماتت في يوم زفافها؟! كان صوتي مرتفعًا من شدة الصدمة الشديدة.

ولـم يقطع هذا إلا صوت باب غرفـة يُفتح مِن ممـرٍّ كان أمامي من الصالة وصوت نسـائي يصرخ بصوتٍ مرتفع: ماذا يحدث عنـدك يا هند؟! مَنْ مَعَكِ في المنـزل؟ واقتـرب الصوت مع اقتراب الشـخص الذي يتكلـم، وعندما وقف في الصالة تحت الإضاءة كانت الحقيقة التي تحدَّثت عن نفسها، إنها سلوى العروسة الشـبح تقف أمامي وأنا أنظر، أريد أن أصرخ ولكن وقف صوتي! أريد أن أصرخ فلا أسـتطيع. أظلمت الدنيا في وجهي وسـقطتُ على الأرض؛ لم أستطع تحمُّل الأمر وغُشِيَ عَلَيَّ.

(12)
المخلوق الغريب

استيقظتْ (هالة) في غرفتها بعد نومٍ طويل، حاولت أن تتحرك من السرير لكنها لم تستطع، أمسكت التليفون واتصلت بأمها وهي تبكي وأخبرتها بما حدث لها بالأمس وقالت لها: عندما سقطت في الغرفة حمَلني (عادل)، ووضعني على الفراش. وعندما استيقظت كان قد ترك رسالة تفيد بذهابه إلى منزل الطوخي، لكنني قلقة عليه وهو لا يزال بالخارج. نزعتُ عني الغطاء، وذهبت إلى الغرفة المجاورة لأُلقي نظرة على غرفة عادل، لكن لم يصل حتى الآن. وحاولت الاتصال به لكنه لم يرُدَّ على الهاتف، وكاد يتعذر عليَّ احتمال البرد.

حضرتِ الشرطةُ لاستكمال التحقيق، وكان معهم بعض الأشخاص للعَرْض عليها للكشف عن الجاني، ولكن لم يتوصلوا إلى معرفة أي شخص منهم، وانصرفت الشرطة بعد اكتمال التحقيق وإغلاق المحضر.

تحرَّكَتْ (هالة) إلى مطعم الفندق، وحاولت أن تأكُل أي شيء وهي تنتظر (عادل)، وبدأت الأحداث تتجلَّى أمامها، والحقيقة التي لم تستطع أن تذكرها للشرطة عن المخلوق الذي هاجمها كان وجهًا دون أنف، ورجله بثلاث أصابع مثل البطة، وعيون حمراء! الغريب أنه لم يهاجمها، ولكن كان يريد أن يتحدث معها، ولكنها مِنْ شدة الخوف صرخت وأُغْشِي عليها. كان المخلوق يرتدي بدلة بشرية، وعلى رأسه بروكة شعر غريبة، وكان يتحدث بصوتٍ مثل الصفارة، كان يريد أن يقول شيئًا، وهذا ما جعلني أتساءل: ماذا كان يريد مني؟ وماذا أفعل لو ظهر مرة

أخـرى؟! يجب عليَّ ألا أصعد إلى الغرفة حتـى يصل عادل إلى الفندق؛ لأن هذا المخلوق لن يستطيع أن يحضر في وسط كل هذا الحشد من الناس. نعم، سوف أجلس فـي هذا المطعم، ولن أبرح مكاني حتى يصل عـادل. وظلَّتِ الأفكار في عقلي، وتذكرت حياتي عندما كنتُ طفلة في منزل المنصورة.

كان العالم في نظري سِـرًّا كبيرًا، ولكن كل شيء تغيَّر بعد وفاة أختي. أحبَّت أختي منظر الأشـياء، كُنَّا نـدرس معًا، وكنا نقضي أوقاتًا جميلـة معًا. أما أنا فقد أردتُ أن أكتشـف كيف تعمل الأشياء. وكنا في قريتنا بالمنصورة نمشي ساعات نتجول في الحقول، ونسبح في البحريات، ونقرأ طوال ساعات الليل.

وبعـد مولد أخي عمر قـرَّر والديَّ العودة إلى القاهرة للأبد، فاسـتقررنا في منزل بحي المعادي. وعِشْنَا لنترعرع فيه.

كان الريف له كل الأثر في حياتي أكثر مما عِشـنا في القاهرة؛ إذ كان الريف مكانًا أمضينا أنا وسحر أختي فيه كل لحظة معًا، وعادةً ما كان ينضم إلينا صديقنا شـوقي الذي كان ودودًا مُحبًّا للهو والمـرح، وكان ثلاثتنا مختلفين اختلاف الليل والنهار، ومع ذلك أحببنا بعضنا بعضًا. نَعِم ثلاثتُنا بطفولة سـعيدة سـعادة بالغة، وكانـا هما أعز أصدقائي، وكنتُ على يقين من أننا سـنظل علـى الدوام مُقرَّبين بعضنا من بعض.

كنتُ فتاةً رزينة دائمة التفكير. وأردتُ أن أتعلمَ كل شـيء وأي شـيء، وقد اسـتهوتني أسـرار السـماء والأرض إلى ما لا نهاية، فكان لا يشغلني شيء سوى العالم من حولي: كيف يسري؟ ولِمَ نحنُ هنا؟ وكيف جِئْنا كلنا إلى هذا العالم؟

ومتى أثارت دراستي اضطرابي وخوفي وأصابتني نوبات الهَلَع؟ وهو ما كـان

يحدُث كثيرًا إلا أن أختي كانت تُهدِّئ مِن روعي وخوفي من المستقبل.

وتعمَّقتُ في دراستي أكثر فأكثر، وأذهلتني قوة العلوم الحديثة، فكنتُ أقرأ طوال الوقت، وسوَّدْتُ الدفاتر بأفكاري. وباتت كلمات العلماء في أنحاء العالم هي ملاذي وكل حياتي. وكلما استذكرتُ تعاظَمَتْ رغبتي في معرفة المزيد، فقرأتُ من الكتب في كل فروعها، وكلما أنهيتُ مجموعة من الكتب اشتريت المزيد والمزيد حتى أصبحتُ أملك مكتبة منزلية تحوي أكثر من ثلاثة آلاف كتاب من جميع الفروع من علوم وآداب وتاريخ، وكلما كبرتُ زاد شغفي بحب القراءة. لكن العجيب أنني كُلَّما قرأت أكثر ازداد انزعاجي؛ إذ لم يُجِبْ ولا عالِم واحد عن أسئلتي قط، ولم يخبرني ولا كتاب واحِد بما أردتُ أن أعرفه بالضبط. كانت الأفكار تتزاحم برأسي طوال الليل عادةً. وكان أصدقائي وأفراد عائلتي لُطفاء، فتغاضوا عن أمزجتي المتقلبة، وكانوا يدعمونني مع أنني كنت أمضي أوقاتًا طويلة منكبًّا على قراءة كتب قديمة تعلوها الأتربة.

وظل لغز الحياة والموت مثار تساؤل وغموض لي. بحثت عن سِرِّ الحياة في حقيقة الأمر، لكن كان العالم الآخر هو السر الأعظم الذي لم يستطع أحد أن يذهب إلى هذا العالم ويعود لنا حتى يخبرنا عن ماذا يوجد هناك.

الشيء الوحيد الذي كان يهُمُّني هو الاهتداء إلى اكتشاف عظيم، ولعلي أستطيع -في نهاية المطاف- أن أجد إجابة عن تلك الأسئلة الغامضة.

(13)
الشبح العائد

حَضَر الطبيبُ إلى منزل الدكتور الطوخي، وكشف على (عادل) الذي دخل في حالـة انهيار، وبعد وقت قصير عاد إلى وعيـه، وعندما فتح عينيه وجد الدكتورة (هند) تقف بجوار السـرير تتحدث إلى الطبيب الذي أمسك بقلمه وكتب أسماء بعـض الأدوية، ثم انصرف. نظرت إليه هند وهي تقول: حمدًا لله على سـلامتك يا دكتور عادل.

سارعت بسؤالها: ماذا حدث؟

قالت: أنا من أريد أن أسألك: ماذا حدث لكَ في حياتك جعلك تصل إلى هذه الحالة؟!

بدأت أحكي لها من أول يوم ظهرت فيه السيدة العجوز حتى وصلت إلى باب منزلكم، ثم دخل شـبحُ أختك، هذا كل شـيء. نظرت إليَّ مبتسـمةً وقالت: أنت تقول إن شـبح أختي سلوى قد ظهر لك في يوم زفافها، ثم شبت النيران وحرقت فستانها وماتت، أليس هذا ما تقول؟!

- نعم.

- وما الذي جعلك متأكدًا مما رأيت؟ أليس من الوارد أن يكون حلمًا ليس إلَّا أو خيالًا؟!

- لكن أنا رأيتُ جثتها في المشرحة.

- ممكن أسألك يا دكتور عادل متى رأيت هذا؟

- من شهر واحد، حياتي كلها انقلبت، منذ ثلاثة شهور، في شهر أكتوبر الماضي.

- عليك أن تسمعني، أنا لا أعرف ماذا حَدَثَ لك، ولكن أعرف أن أختي سلوى لم تمُتْ محروقة. نعم، من أكثر من خمس سـنوات كان يوم زفافها، ونعم حَدَثَ حريـقٌ فـي القاعة وأصيبت، وتُوفِّي أحد الأشـخاص لكن لم يكُن هذا الشـخص العروسـة أختي سـلوى، على العكـس كان المصاب العريس، والـذي تُوفِّي بعد أسـبوعين من الحادث إثر الحروق الخطِرَة التي أصابت جسـده وهو يحاول أن يُنقذ العروسة رحمه الله، لكن سلوى كانت حروقها خفيفة، وخرجت بحالة جيدة من المستشـفى، والآن أريدُ منك أن تتمالك حتى أستطيع أن أحضر أختي لتتأكد بنفسك أنها حقيقة وليست شبحًا أو خيالًا.

ثم رفعت بيدها إحدى الستائر في الغرفة لتظهر خلفها سلوى أختها أو الشبح العائد.

كان جسـدي يرتعد من الخوف والصَّدْمة؛ هي أول شـبح من الأشـباح التي ظهرت لي يتحول إلى شَخْص حقيقي، تقترب مني بخطوات ثابتة، وبصوت هادئ وابتسامة طفلة صغيرة مع ملامح وجهها التي توحي بسنها الذي تخطى الأربعين، ولكن كانت جميلة أيضًا نظرت إليَّ بعينيها العسـليتين، وشعرها الأسود الطويل، ومالت بجسدها إلى طرف السرير ثم جلست وقالت: يا دكتور عادل، لقد سمعتُ حكايتـك كلها وأنا أجلس خلف السـتار، وقد تأثرت جدًّا باكتشـاف وفاة زوجتك ومرضِك وما حدث لك، وأما عن حكايتي معك -وابتسـمت وقالت: قصدي شبحي أو عفريتي كما تقول- فأنا آسفة على فزعك مني، وأما عن الدار والكُتُب وكل هذه الأسئلة فسوف أساعدك في بعض الإجابات، وأما عن كتاب (الموتى يهمسون) هو باسمي نَعَمْ، لكن لم أكتبْ فيه حرفًا واحدًا.

توقفتُ هنا وقُلت لها: نعم، أنت سلوى ابنة الدكتور الطوخي، كيف لم أعرف هذا؟! سلوى الطوخي ابنة الطوخي الفلكي، لكن كان مِنَ المستحيل أن أصِل إلى هذا فقط بدأت الحكاية الآن في نسج خيوط النهاية.

- نعـم يا دكتور، من الحكاية التي سـمعتُها منك ومن الحكايات التي عرفتها من أبي أفهم الآن ما يدور.

- هل عندك إجابات عما يدور من أحداث؟

- عندي بعض منها.

- أول شـيء: أريد أن أعرف مـا يحدث؟ وما هي مدينـة النحاس أو البرونز وعالم الأشـباح الذي فُتِحَ على عالمي؟ وهل أنا أحلم أو هناك فعلًا عوالم أخرى لم أعرف عنها شـيئًا؟ وما هذا المخلوق الذي يظهر أخيرًا ويريد التحدث معي؟! رجاء منك يا.. لا أعرف لقبك!

- سلوى الطوخي استشاري أطفال وحديثي الولادة.

- دكتورة سلوى، رجاءً أخبريني بكل ما تعرفينه عن الحكاية.

◆ أصل الحكاية:

تنحـدر عائلتي مِن أصـول تركية، وتعود إلى جدي لأبي، فبعد أن خسـر كل أمواله كدح أبي في العمل بشـدة في شبابه، وأضنى نفسه في العمل بحق حتى إنـه لم يُفكر إلا فـي واجبه نحو وطنه. حتى الحب بَدَا أقل أهمية في نظره، ولم يتزوج إلى بعد أن تقدَّمَ به العمر.

تتجلـى طبيعة أبي الحقيقية في قصـة زواجه من أمي؛ فقد كان لأبي صديق عزيز اسمه (شاكر) فَقَدَ كُلَّ ما يملك، ومَرَّ بظروف صعبة. علم الرجل أن حياته قد

انهـارت، وكان معه أموال تكفي فقط لسـداد ديونه قبل أن يرحل هو وابنته إلى لبنان، ولم يرد شـاكر أن يرى أصدقاءه بعد ما حدث له؛ إذ كان رجلًا أبيًّا لم يشـأ أن يعرف أحد ما حَلَّ به.

وطـوال خمس سـنوات كاملة ظلَّ أبـي يبحث عن صديقه ظنًّـا منه أنه في مقدوره أن يجعله يعود إلى بلدته، وأراد أن يساعده للوقوف على قدميه مرة أخرى.

ولمَّا عثر عليه أبي أخيرًا كانت حاله أسوأ كثيرًا مما يمكن أن يخطر على بالِ أبي.

كان (شاكر) في حالة إعياء شديدة، واضطرت أخته إلى ترك عملها كي تتفرغ لرعايتـه، وكان كل مـا بحوزتهما معًا بضعـة جنيهات لا غير. ومـع هذه الحياة القاسـية تدهورت صحة (شـاكر) ومات في غضون أشـهر قلائل، وفي يوم جنازة أخيها شاكر سقطت بجوار النعش وبَكَت بشدة. كانت لا تعرف أين تذهب وإلى أين مصيرها الآن؟!

وعندما انتهت الجنازة اعتاد أبي أن يرسـل إليها المسـاعدات مِنْ وقت إلى آخـر، وبعد عام تزوجها، وأنجبت أمي أكبر إخوتي ليلى التي تُوفيت مِنْ عام في أمريكا.

كان أبي يُحِبُّ العمل، عندما كان يدرس الفلسفة في جامعة الإسكندرية قبل أن يترك التدريس ويتفرغ للكتابة والفلك، كان يعمل على شيء لم يُخبِر أحدًا به، لكن قبل آخر أيامه معنا، وكان عمري في وقتها واحدًا وعشـرين عامًا كان يجلس بيـن غرفة المكتـب والمكتبة بالأيام، وخصوصًا بعد وفـاة أمي، وقبل أن يختفي بثلاثـة أيام دخل عليَّ غُرفتـي وأعطاني ظرفًا، وطلب مني ألا أفتحه إلا إذا حدث له شـيء. لم أفهم وقتها، ولكن بعد ذلك عندما اختفى بعد شهور تذكرتُ الظرف

فذهبت إلى غرفتي وأخرجته، وعندما فتحت الظرف كان موجودًا به نسخة ورقية مكتوبة بخط أبي من كتاب (الموتى يهمسون أحيانًا)، ومعها رسالتان واحدة باسمي، وقد فتحتها فكانت وصية من أبي ببعض الأشياء، وطلب أن أطبع الكتاب باسمي وفي دار إنجاز. اتصلتُ بابن صاحب الدار، الغريب أنه قال: «كل شيء جاهز ونحن في انتظار إرسال الأوراق». مع علمي وقتها بغلق الدار وموت صاحب الدار، ولكن نفَّذت طلب أبي. أما الرسالة الثانية فكانت باسم الدكتور الغريب الذي يصل منزلي، ويسقط على الأرض، ويستيقظ في غرفتي. لم أفهم وقتها شيئًا من الرسالة لكن عندما أتيتَ اليوم وحَدَثَ ما حَدَثَ عَلِمْتُ أنه أنت صاحب الرسالة الثانية. لعلَّها تُجيب عَنْ بعضِ أسئلتك.

أما عن أبي فقد تغيَّر بعد سفره إلى أمريكا؛ رجع وترك الجامعة والتدريس، وعَكَفَ على قراءة كُتُب السحر والأساطير، وكان يتحدث عن قرية في الغرب الأمريكي هي مدينة الساحرات القديمة كان يحكي ويقول:

«في عام ١٦٩٢م أُطلقت حملة شرسة للقبض على المشعوذات في العالم أجمع، حيث ظهر مجموعة من الأشخاص أطلقوا على أنفسهم اسم (المتطهرون)، زعموا أن الشيطان يسكن بينهم، وشرعوا في قتل الجميع. وشهدت مدينة في الغرب الإنجليزي أكبر وأبشع المذابح التي عرفها التاريخ.

كانت قرية صغيرة في المملكة تقع على طرف إحدى المستعمرات الإنجليزية في هذا الوقت، وكان يُهدِّدها الفرنسيون من الشمال والذين تساندهم قبائل الأمريكيين الأصليين، وكان من وجهة نظر الإنجليز أن هؤلاء الأشخاص على علاقة مع الشيطان، بل وهو مَنْ يُوجِّههم. تلك المعتقدات والصراعات دفع ثمنها أهالي

هــذه القرية. وظهر من الإنجليز جماعة (التطهيريــن) والذين حَكَمُوا على كثير من الأطفال والنســاء بالمــوت. كانت حياة جماعة التطهيريين أشــبه بالاعتكاف والجنون، وظنوا أن السعادة أو أي إحساس بالمتعة هو من مُغريات الشيطان.

بدأ الأمر عندما عانت طفلتان -تبلغ إحداهما تسـع سـنوات والأخرى سـبع سـنوات- أعراضًا غريبة بعض الشيء، وتمثلت في تشــنجات متواصلة لأكثر من نصف ســاعة، وخروج أصوات غريبة من حنجرتيهما، وتفوههما بكلمات مجهولة بلغــات غير مألوفة، كما بدأت الطفلتان في التصرُّف بســلوك عصبي وعنيف مع تمتعهما بقوة جسدية ضخمة للغاية.

كانت إحدى الطفلتيــن ابنة القس الأكبر في القرية، والأخرى ابنة أخته، وقد فســر ما تمُرُّ به الفتيات على أنه مَرَضٌ غريب ونادر، ولكن لم يعرف أحدٌ ما هذا المرض. وبعد ذلك انتشــرت نفــس الحالة لدى العديد من فتيــات القرية، وبدأ القاضي والرهبان بســؤال الفتيات عما يحدث لهن، أشارت الفتيات إلى أن هناك أربع ســيدات يقمن بأعمال الســحر، وهن الســبب في مَرَض الفتيات، وكان هذا بمنزلة الشرارة التي أشعلت النيران في القرية.

جــرت مُحاكمــات ســاحرة فــي مســتوطنة داخل مســتعمرة خليج (ماســا تشوســتس)، والتي كانت في وقت المحاكمات فــي عام ١٦٩٢، وقعت الأحداث الأولى لمحاكمات الســاحرات في مارس من عام ١٦٩٢م، وسُــرعان ما انتشــرت الاتهامات في القرية بأكملها. فأُعْدِمَ خلال تلك الفترة ما يقرب من ثمانية عشــر شــخصًا بتهمة ممارسة الســحر، منهم أربعة رجال فقط، والأشخاص الباقون من النساء.

كان الإعدام يُطبَّق إما بالحرق أو الشَّنْق، وبحلول شهر أكتوبر من عام ١٦٩٢م كان قد أُعْدِمَ عشرون شخصًا، جميعهم بين تسعة أعوام وعشرين عامًا. وكان أخذ الاعتراف من الساحرات عن طريق التعذيب؛ والذي تمثل في الحَرْق، ونَزْع الجِلْد، ونـزع الأظافر، ووضعهم في أقفـاص على جمرات مُلتهبـة، والربط علانية أمام السـكان حتى يُرجموا.. وغيرها من الوسائل البَشِعة، وقبل حلول ١٦٩٣م توقَّفت المحاكمات بشكل كبير، وذلك بعد أن هرب معظم سكان القرية.

هذه البلدة الآن يتجمَّع فيها آلاف السَّـحَرة مع أهالي المدينة في قَلْب الليل في وادٍ كبير يقعُ على أطراف المدينة في اليوم العاشـر من أكتوبر، لحضور (عيد الاحتفـال بالموتى). يبدأ الاحتفـالُ بالصمت التام ليُصبح المنـاخ مهيَّأ للاتصال المباشر بين الموجودين وأرواح الموتى الهائمة، وهنا يبدأ احتفال الرعب الأقوى في العالم.

هذه المدينة ترفع شعار (أنت ساحِر إذن أنت مواطن في مدينتنا)؛ فالساحر أو المشـعوذ في هذه المدينة يتمتع بالحقوق القانونية والدسـتورية لممارسـة جميع أنواع السـحر. والسـحرة في أنحاء المدينة يتركَّزون في القرية، وكل هؤلاء السَّـحَرة يلتفُّون في النهاية حول كبير أو كبيرة الساحرات. ومن الصعوبة معرفة العدد الحقيقي للسحرة في المدينة؛ حيث إن أعدادهم ضخمة منهم مَنْ يُفضِّلون التجمع سِـرًّا ولا يعترفون بأنهم سـحرة خـارج مدينتهم؛ خوفًا مـن نظرة الناس السيئة لهم.

ويقال: إن كبيرة المُنجِّمات في المدينة تحتفظ دائمًا بسـلطة تعليم أسـرار السـحر الأكثر فاعلية للسـاحرات الجُدُد، وليقمن بممارسته بعد ذلك تبعًا لقدرة

كل واحدة منهن، وتؤكد إحدى الساحرات أن السحرة في المدينة لو استخدموا القدرات الخارقة لديهم في إيذاء العالم فإن التوازن الطبيعي للبشرية سيختل في كل شيء».

هكذا عاد أبي من هناك بأفكار جديدة وحياة مختلفة نهائيًّا، ماذا حدث؟ أو ماذا شاهد؟ لا أحد يعرف، ولم يخبر أحدًا بما حدث له في هذه المدينة.

أما عن سؤالك عن مدينة النحاس أو البرونز، فهناك بعض المصادر تحكي أن قومًا لا مثيلَ لهُم في البنيان والضَّخامة والفخامة، دخلوا القصر ولم يُصدِّقوا ما وقعت أعينهم عليه؛ كان القصر مُمتلئًا بالمجوهرات والكنوز.

ظل القائدُ يتجول في أرجاء القصر والجنود يأخذون ما تشتهيه أنفسهم من كنوز، إلى أن وصلوا إلى غرفة كبيرة وجدوا فيها المفاجأة الثانية؛ سيدة فائقة الجمال ترتدي ملابس من حرير نائمة على سرير داخل الغرفة، وبجوارها تمثالانِ يحملانِ سيفين من نُحاس. للوهلة الأولى ظنوا أن السيدة على قيد الحياة؛ إذ إن عينيها كانتا مفتوحتين، إلا أنه في الحقيقة فإنَّ عينيها قد اقتلعتا من مكانهما، ثم أُعِيدَتَا إلى وَجْهِها مِنْ جديد.

فوق السرير كانت هناك لوحة مكتوب عليها: «خُذْ ما شئتَ مِنَ المجوهرات ولكن لا تأخُذ المجوهرات التي أرتديها».

كان على رأس السيدة تاجٌ من أروع التِّيجان، فحاول أحدُ الجنود أخْذه وأخذ المجوهرات الأخرى التي ترتديها ضاربًا بعُرْض الحائط التحذير المكتوب على اللوح. في تلك اللحظة تحرَّك التمثالان المجاوران لها وضَرَبَا عُنُقَه ثم أمر القائد رجاله بالرحيل، وبينما هم يمشون عثر القائد على قطعة تمثال من الذهب

الخالص فقال القائد: «هذه أرض مســحورة كثيرة الجبال والغرائب حولها مِنْ كُلِّ مــكان». وأَمَرَ رجاله بالتحــرُّك، ودخول تلك الأرض، فإذا بمنظر لا يُرَى في الأحلام قــد حصل معهم، نَمْــل ضخم خَرَجَ من بيــن الجبال نحو الرجــال فمزقوهم مع خيولهم وحوَّلوهم إلى أشــلاء، وبينما ذلك النمل الأسطوري يقترب فإذا به فجأة ودون سابق إنذار يتوقف أمام التمثال الذهب الذي سَقَطَ من القائد مما جعلهم يعــودون أدراجهم مرة أخرى إلــى الجبل. كان من الواضــح أن لهذا التمثال قوة غامضة. ثم بعد ذلك ابتعدوا عن سُــور المدينة المسحورة حتى وصلوا إلى مكان بــه بحيرات صغيرة تدور جميعها حول جبل صغير لكن لون البحيرات كان غريبًا؛ كان لونهــا يميل إلى لون الذهب أو النحاس الأصفر. قال أحد الجنود للقائد: «أنا أستطيع أن أنزل البحيرة حتى أكتشف ماذا هناك».

فجأة خرج مِن وســط البحيرة شخصٌ يشبه البَشَــر في هيئته ولكنه عملاق، فســألوه: «مَنْ أنت يا هذا القائــم على الماء؟». فأجابهم: «أنا مِــنَ الجِنِّ الذين سَــجَنَهُم النبي ســليمان في هذه البحيرة، وإنما خرجتُ لمَّا ســمعتُ أصواتكم». سألوه: «هل يُوجَد غيرُك هنا في هذا المكان؟». قال: «لا أعلم». قال القائد: «كم ســجينًا حُكِمَ عليه معك من الجن؟». قال: «ومَنْ يقدِرُ أن يُحصي عدَدَهم؟». ثم غاب عنهم في لمح البصر.

بعد ذلك استطاع الجنود التغلُّب على تأثير المدينة، واستطاع واحد منهم أن يصعد على السور، ولم يسقط كسابقيه، وتمكَّن من النزول ليفتح لهم الباب. ربما تتساءل: ما الذي رآه الرجل خلف السور؟

- نعم.. نعم، ماذا رأى الرجل خلف السور؟

- بحســب الرواية التي يتداولها الناس عبر الســنين، ومن بعض كُتُب السحر والخيال أنه رأى مجموعة من النساء فاتنات، وكانت كُلُّ واحدة منهن تُغويه لكي ينزل إلى المدينة، ولكنه على الرغم من شــعوره بسلب الإرادة فإنه قَاوَمَ النساءَ وجعلهــن يصرخن لعدم اهتمامه بما يفعلن؛ ممــا أدى إلى اختفائهن تمامًا. وقد سار الرجلُ على حافة السور إلى أن وصل إلى بُرْج للمراقبة، ووجد بداخله تمثالًا من نُحاس لفارس على جواده مكتوب عليه: «إنْ أردتَ فتحَ باب المدينة الساحرة افرك يديــك». فَفَرَكَ يديه وفتح أحــد الأبواب، دخل (الجنــود والقائد) المدينةَ، وانقسم جيشُه إلى قسمين؛ قِسْمٌ بَقِي خارجها للحراسة، وقسم دخل معه. وكانت المفاجأة الأولى، وجدوا في شــوارع المدينة العديد مــن الجُثَث إلا أن أصحابها كانوا وكأنهم نِيَام لا موتى، فسار (القائد) وجيشه في أرجاء المدينة إلى أن وجدوا قصرًا. بعد ذلك خرج (القائد) مع جنوده وساروا نحو جبل شامخ ثم عاشوا هناك، ولم يرجع أي شــخص منهم. ولم تُذْكر القصةُ إلَّا فــي الكُتُب الخيالية والقديمة. هُنــاك مَنْ يُصَدِّق القصة، وهناك من يَعُدُّها مُجــرَّد حكاية نحكيها للأطفال. هذا كُلُّ ما أعرف عن مدينة الذهب أو النُّحاس أو البرونز. والآن أترُكك حتى تستريحَ وتقرأ الرسالة الخاصة بك لعلَّ بها ما يشفي تعبك وشقاءك.

الفصل الثالث

(13)

رحلة إلى العالم الآخر

أمســكتُ بيدي الرسالة وفتحتها، كانت مكتوبة بحبر وريشة مثل المخطوط، وبدأت في القراءة: «الســلام عليكم أيها الغريب، نحن لم نلتقِ بعد، ولكن اعلم أنــي في انتظارك من عشــرين عامًا.. لا، ليس وحدي، نحــن جميعًا في انتظارك.. نعم، نعم، أعلم أنك لا تفهم ما أقول، ولكن اقتربت الرحلة من النهاية، وســتعلم الحقيقــة، ولكن اعلــم أنه لا توجد حقيقة ولا توجد نهايــة، نحن نأتي إلى الدنيا ونرحل، ومنا مَن شــرب مِن نهر الحكمة شــربة، ومنا مَن شــرب مِــن نهر الصبر شربة، ومنا مَن تحدَّث أكثر من لغة، ومنا مَن لم يستطِع أن يتحدث بأي لغة، منا الطيبون ومنا الأشرار، منا الأحمق ومنا العبقري، منا الجبان ومنا الشجاع، منا مَن قابل الحب في حياته، ومنا مَن لم يجد أحدًا يحبه طول حياته، الجميع يرحل في النهاية.. لا، ليست نهاية، لقد اتفقنا أنه لا توجد نهاية، دائمًا كل نهاية هي بداية لعالم آخر وحياة أخرى، نحن جميعًا في انتظارك هنا، وعندما تأتي إلى هنا سوف تعلم كل شيء، عندما يأتي إليك الإذن سوف نلتقي عن قريب. (وتوقيع بحروف صغيرة باسم). الطوخي».

عنــد انتهائي من الرســالة رنَّ جرس باب المنزل، ووصلــت هالة من الفندق بعــد أن تأخر الوقت ولم أصل إليها، ودخلت الغرفة مع (هند) ونظرة القلق على

وجهها، ولون الحمرة على بشرتها البيضاء، الحقيقة كانت جميلة الصورة والقلب، وللحظة وأنا جالس في الغرفة وعن يميني هالة وعن شمالي هند وأمامي سلوى، والحقيقــة كُنَّ جميعًا جميلات وقوامهن مثل تماثيل النســاء الإغريقية التي كنت أنبهــر بها عند دخول الأوبرا، جلســنا جميعًا مع دفء المدفئة نحكي ونتســامر، كانت ساعات من أجمل الساعات في حياتي، كنا جميعًا يتملكنا شعور بأننا نعرف بعضنــا البعض منذ زمن بعيد، كنا نحكي عن الطفولة والشــباب، وعن الحب في الطفولة، وعن الحب وأول خيبات الأمل، حكينا عن الفشــل ولحظات النجاح عن الهزائــم والانتصار, عن العلوم والفن، عــن الحياة والموت، عن الأهل والأصدقاء, حتى شعرنا جميعًا بتعب، وذهب الجميع إلى النوم.

عند الساعة الرابعة فجرًا سمعت صوت أحد ينادي باسمي بأعلى صوت وكأنه غاضب مني، ثم اســتيقظت هالة، وقالت إنها سمعت نفس الصوت يناديها طوال الليل، وقالت لي: ربما نحن نتوهم بســبب الرسالة، نستعد للعودة إلى القاهرة، وننســى كل شــيء، ونعود إلى أعمالنا وحياتنا العادية، فإنه شيء مخيف ويكاد يربكنا، في كل لحظة تمر عليه أحمد الله أنه بخير ولم يحدث له -وإن عشــت- مثل هذه الأحداث ولو كنت أعرف ما ســوف يحدث ما بدأت أي سؤال ومحاولة معرفة شيء.

حاولــت بكل الطرق تهدئتها، وفي وســط الحديث اســتيقظت هند وتبعتها سلوى واستيقظ الخدم وجميع مَن في المنزل.

ذهبــت للمكتبة وأنا أفكر وأفكر في تلك الأصوات، حتى أخذتني غفوة خلال جلوسي وأنا على كرسي المكتب الذي كان يجلس عليه الدكتور الطوخي بنفسه.

وعندما استغرقت في النوم كان هناك أصوات وليس صوتًا واحدًا، فقلت: مَن هنا؟ مَن ينادي؟

لكن لم يجب أحد، وبدأت أســمع الصوت يزداد ويقترب مني، وفجأة! كنت في مكان غريب لا يبدو مثل أي مكان في الأرض، وأمام باب منزل أيضًا لا يشبه منازلنــا ولا بيوتنا، وكانت واقفة أمامي امرأة جميلة جدًّا شــابة في مقتبل العمر ترتدي فســتانًا أبيض، تقف وراءها امرأة مســنة كانت تكلمني بكلمات ولغة غير مفهومــة، وتردد الفتاة كلماتها بلغتنا، لكني لم أســمعها جيدًا؛ فصرخت ونظرت مجددًا، وقلت: لهم: ماذا تريدون مني؟

فأجابتني هي: نحن؟ أم أنتم ماذا تريدون منا؟

فصمــت لبرهة، ثم قلت لنفســي: ربمــا هي فرصة، وأكملــت: هل أنتم من عالمنا أو من عالم آخر؟ وهل أنتم من الأشباح أو من الجن؟

قالــت لي: العلم عند الله وحــده.. هذه حفيدتي وأنا جدتها وأبلغ من العمر ألف عام، وهناك الآلاف منا يســكن هذه المدينة، ونحــن لا نؤذي، فنحن نؤمن بالله، نحن مثلكم تمامًا لا نختلف عنكم كثيرًا إلا في بعض الأشياء.

ثــم اختفت تمامًا من أمامي، واقترب مني صــوت مثل صوت الطفل الصغير وهو يقول: تفضل معي يا ســيدي، أنا مُــوكل أن أصطحبك في جولة في المدينة. كان نظري أســفل على الأرض عندما حركت رأســي ونظري إلى مكان الصوت، يا إلهي، إنها نفس قدم المخلوق العجيب، إنها أرجل البطة! هل يأتي هذا المخلوق معي في الحلم؟ أو أنا لســت في حلم من الأساس؟ أريد أن أجري بعيدًا، لكن لا أستطيع الحركة، أريد أيضًا أن أصرخ بكل ما أملك من قوة، لكن أيضًا لا أستطيع،

لم يكن في مقدوري أن أفعل شـيئًا غير أن أستسـلم لهـذا الغريب أو المخلوق العجيب.. نعم، استسـلمت له بكل جوارحي، وتركت نفسي.. نعم، لقد تعبت من كل هذا، وقلت لنفسي: لعل هذا المخلوق يأتي بشيء جديد أو بفعل يكون معه الخلاص مما أنا فيه. وفي وسـط هذه الحالة إذا بهذا المخلوق يضع يده أسـفل كتفي، ويرفعنـي من الأرض، وتنقطع كل الأصوات التي كنت أسـمعها، فقبل أن يظهـر هذا المخلوق كنت أسـمع أصوات العصافير وهديـر الماء وتلاطم المياه في وسـط الصخور، وصوت فروع الأشـجار، وأصوات أطفال تلعب، لكن كل هذا اختفى بمجرد ظهور هذا المخلوق، وكان هذا لا يبشـر بأي خير؛ إذ لو كان بشـير خيـر لما حدث هذا؛ أن تختفـي المرأة العجوز والفتـاة الجميلة بمجرد ظهوره، وتأكـدت مخاوفي بعد أن رفعني؛ حيث أظلمـت الصورة في عيني، وأصبحت لا أسمع ولا أشـاهد شيئًا غير حركة ارتفاعي وإحساسي بمكان وضع أصابع يد هذا المخلوق أو الرجل البطة.

وكان قلبي يكاد أن يتوقف، ثم فجأة! ظهر النور، لكن ليس مثل نور أرضنا، لا أعرف كم من الوقت قد مَرَّ علينا؟ ولكن جمال المكان وسحر النور الساطع دون مصابيح، كان نورًا أبيض يسـطع على المكان، حتى جسـدي كان قد تغير من أثر الإضاءة والنور، حتـى الألوان لم تكن ألوانًا مثل التي نعرفها، والرمال كانت بلون الذهب الساطع والأشجار عالية إلى السماء.

ثم عادت الأصوات مرة أخرى، أصوات الماء والأشجار، وبعد أن قطعنا مسافة لا أعرف كم هي كان الوقت أيضًا مختلفًا، بعد مسافة من الحركة وقفنا على بحيرة ألوانها كانت أيضًا ليسـت مثل بحيراتنا، وفجأة! بدأت أسـمع صوت موسـيقى..

نعـــم، كنت أعرفها جيدًا، كانت مقطعًا من ســيمفونيات (بتهوفن) الرائعة، وأيضًا كان العزف غير الموجود لدينا، أنا من عشــاق الأوبرا، وعاشــق لهذا الفن، وليس مســتمعًا فقط، ولم أســمع عزفًا مثل هذا على أرضنا. جلســت أسمع هذا الفن، وكان من أجمل الأشياء التي جعلتني لا أريد أن أترك هذه البحيرة، وقد فهم هذا المخلوق أني مســتمتع بهذا العزف، تركني وهو يتابعني، ومَرَّ شــيء من الوقت الــذي لا أعرف كــم هو، ونحن نعبر من مــكان إلى آخر, كنا نعبر بين الأشــجار والجبال الذهبية، ثم ســألت هــذا المخلوق: أين نحن؟ أين هــذا المكان؟ وهل أنــا أحلم أو أنا في العالم الآخر؟ قــال المخلوق بصوت طفولي: هذه هي مدينة الذهب أو مدينة النحاس والبرونز.

وقفــت على قدمي، ثم قلت: ماذا؟ هــل هي موجودة؟ قال: نعم، أنت تقف علــى أرضها الآن. ثم حكى لي، وقال: عندما دخــل القائد وجنوده المدينة تزوج رجالــه من الجن الموجود فــي المدينة، وتزوج القائد من ابنة ملك الجن، وأصبح منهم ســلالة ملكية خليطة من البشر والجن، ولكن قدراتهم كانت تختلف حسب دم السلالة؛ ملكية، أو من الجن الخادم.

الســلالة الملكية منها الأمراء من الجن، وأمــراء الجن المخلط هم أقل درجة من الجن، والبشــر من سلالة القائد وأحفاده من الجن المخلط بدمه ودم زوجته ابنة ملك الجن.

والجن الخــادم وأبناؤهم من النواقم والواعرين أو الخليط من البشــر، وهم أحفــاد الجن الخادم والجنود الذين كانوا مع القائد، وهم أقل منصبًا واحترامًا في عالم المملكة؛ ومن أجل هذا يكرهون البشر، وكل فترة يخرجون لعمل مشكلات

مع أهل الشاطئ، كما يقولون على البشر، ومنهم الجن العاشق، وغيرهم.

قلــت: ومن أي فصيل أنت؟ قال: أنا من مخلوقــات الجن الخادم، ودمي من الجن فقط، أنا من الجن الغواص. ثم فجأة! أظلمت الدنيا مرة أخرى!

صحوتُ على صوت ســلوى، وأخذت دقات قلبي تنخفض شــيئًا فشــيئًا وهي تقول: عادل، ماذا أصابك؟ أنت تتحدث وأنت نائم؟!

فرويــتُ لها حلمي، واقشــعر بدنها، وقالت لي إنها تعلمت درسًــا، وإنها لن تعود إلى البحث أو التحدث عنهم، هم يريدون الهدوء والراحة في معيشتهم وأن نتركهــم في حالهم. قلت: وأنا أيضًا معــكِ في هذا، لقد وصلت إلى نهاية الرحلة، ومعــي الآن بعض الإجابات؛ علمــتُ أن الموتَ مرحلة من الرحلــة، وليس نهاية الرحلــة، الآن أؤمن كثيرًا بأن المســافة الفاصلة بين عالمــي وعالم الموت مجرد حــدث، حــدث واحد أيًّا كان، هو لحظة فاصلة بينــك وبين عالم غريب لا تعرف عنه شيئًا، وأن الابتلاء هو اختبار مِن الله تعالى للعبد، إما يصبر على هذا الابتلاء ويكون من الشــاكرين، ويحمد الله في السراء والضراء ويكون مصيره رضوان من اللــه (عز وجل) ومغفرة ورحمة، أو يكون مــن الناقمين وينال غضب الله تعالى ولعنتــه.. اللهــم اجعلنا من الصابرين. ثم يقع نظره علــى كتاب الطوخي النواقم والواعرين ويكمل القراءة:

فــي قصر الملك خربط في عتمة الأمواج، تــم إيقاظ رئيس الحرس (أورمان) من نومه، وبمســاعدة الحارس الليلي ارتدى على عجلة سُترته الحمراء المصنوعة مــن جلد فرس النهر، ثم وضع على رأســه تاج القيــادة، والقائد لا يظهر أبدًا من دون هذا التاج، ثم اتجه القائد بخطوات واســعة في الممرات والطرق والســفن

الغارقــة منطلقًا إلى غرفــة العرش، كان القائد ضئيل الحجم يشــبه الجرذ، عيناه باهتتان، وبدا منظره وهو في ســترته الضخمة كأنــه وقع فيها؛ مما جعل مظهره مثيرًا للسخرية، ومع كل هذا كان القائد رجلًا داهية في فنون القتال والحرب، هو مَــن هو الذي أنهى الحرب لصالح الملك خربط وأمــه وحليفهم الوزير الكحيان، وهــو مَن قلب موازيــن القوة في الحــرب الكبرى التي جعلت القوة والســيادة للملكة، وابنها، وحلفائهم.

كانت عتمة الطريق شديدة، ولولا إضاءة قنديل البحر العائمة وبعض الشعب والمرجان المضيئة ما استطاع أن يتحرك في سواد الماء والرياح الباردة على هيئة ضباب في دفعات ســريعة متقطعة وصل إلى قاعة العرش، لم يدُم انتظاره حتى دخل الملــك (لخبط) وزوجته ابنة الوزير امرأة شــابة طويلة القامة ترتدي الزي الملكــي باللون الأحمر الداكن شــعار المملكة، وتاج الملــك بجوهرة حمراء في منتصف التاج، وشــعر طويل بلونه الأحمر، جلســت على كرسي العرش، ورتَّبت مظهرها على الكرسي. ويجب هنا أن أشير إلى احترام وحقوق المرأة في مملكة البحور، هنا النساء هن مَن يجلسن على العرش قبل الرجال، وقبل الملك الممالك البحرية كلها تحترم النســاء، حتــى البائعات الفقيرات، هنا المرأة لا تُســجَن ولا تصبح من ســبايا الحرب ولا جارية ولا تتــزوج دون موافقتها، حتى لو كان الملك نفســه. أيضًا في المملكة كان الكل يحترم القوانين، لا فرق بين غني وفقير، كان الكل يعمل هناك، بعض الأشياء قد تغيرت بعد الحرب الأهلية، إلا قوانين النساء؛ لم يعبث بها أحد.

جلـس الملك (لخبط) بجوار زوجته الملكة اسـتكانة ابنة الوزير الكحيان، ثم تحدث وقال: أيها القائد أورمان، ماذا فعلت مع أهل الشاطئ؟

قــال أورمان: يــا مولاي، لقــد تركنا عليهــم النواقيم والواعريــن يخطفونهم ويزرعــون الرعب فــي كل مَن يحاول أن يقترب من أي شــيء يخص المملكة أو الطبقة العليا، وأريد أن أُطمئن جلالتك؛ لا يوجد أي خطر من أهل الشــاطئ على المملكة، نحن بعيدون عن الغواصات وحروب أهل الشــاطئ، نحن في أسفل قاع البحور والمحيطات...

قاطعته الملكة (اســتكانة) قائلة: أيها القائــد أورمان، أريد منك أن تتأكد من قواتنا، هل يستطيع جنودنا أن يصدون أي اعتداء من الممالك الأخرى؟

- نعم، بالطبع نســتطيع أن نفعل بكل سهولة، ولا أعتقد أن أحدًا من الأعداء يفكــر أن يفعل هــذا، وأي اعتداء من أي مملكــة أو أي فوضى من أي معارضين سوف يكون انتحارًا لهم ولشعوبهم، نحن نمتلك جيشًا كاملًا من حيوانات (أوركا) الشابة، أما باقي الممالك تملك العجائز منها، التي ضاع نظرها وسمعها وضعفت قواها.

ينظر الملك إلى القائد، ويقول: إذن كيف تم الاعتداء اليوم على قصر الملكة الأم؟

أورمان في ذهول: ماذا؟! كيف هذا يا مولاي؟!

- لقد تم الهجوم من المتمردين على قصر الملكة الأم، وتم قتل بعض الخدم والحرس الملكي.

وبــدأ صوت الملك يرتفع بعد أن حضــر كُلٌّ من الوزراء وقادة المملكة، وهو يقول: أيها القائد، أيها الوزراء، أريد هؤلاء المتمردين اليوم في ســجن الظلمات، أو أعلق رءوسكم جميعًا على الساريات في الأشدون العظيم.

على الجانب الآخر مملكة الملك مرة وابنه الأمير تاج، والمملكة الأخرى الحليفة مملكة الملك الأخضر وابنته الأميرة هالي، وهي أيضًا زوجة الأمير تاج، المملكة الأولى والوسطى أصبحوا قوة لها ثقلها الآن، وتعمقت بعد زواج الأمير والأميرة، وعلى وشك أن تتعمق أكثر وأكثر بعد أن تضع الأميرة حملها الأول، ولكن اجتمعت عائلتا المملكتين؛ بسبب سوء حالة الأميرة هالي الصحية، أيضًا بسبب انتشار مرض غير معروف في المملكة، اجتمع الملك مع القادة والوزراء وعلماء المملكة؛ لحل مشكلات المملكة، ودخل الملك قاعة الحكم وهو يرتدي الزي الرسمي، كانت القاعة مزدحمة بالقادة والعلماء، وبالطبع الجميع يرتدي الون الأخضر اللون الرسمي للمملكة، كان الملك مرة صارمًا لا يتهاون مع القادة، وخصوصًا مَن يعتدي على أحد من أفراد شعبه دون وجه حق لهذا الاعتداء، كان مصدر هذه القوة هو التحالف مع الملك الأخضر وجيش المملكة الخضراء؛ مما جعل جلوسه هو وابنه (تاج) على العرش جلوسًا قويًّا ضد أي أطماع من القادة أو المعارضين، كان مَن يحكم المملكة في الخفاء هو الملك تاج؛ كان شابًّا متفتحًا محبًّا للسلام وضد الحروب والانقسامات، لكن لا يملك صبرًا على حلمه الأكبر؛ وهو توحيد الممالك، وجعلها كما كانت في عهد الملك زوبعة، قوة لا يستهان بها.

خارج قاعة الحكم، تجلس الأميرة هالي في إحدى شرفات القصر، تنظر إلى الحيتان وعوامات التنقل من أسماك القرش حول القصر، كانت اقتربت من ولادة أول مولود لها، وقد أخبرها كبير الحكماء في القصر أن تحافظ على انفعالاتها وحركاتها، ونصحها بعدم التحرك من غرفتها حتى معاد الولادة، لكنها لم تستطِع

هذا، جلســت بعد أن أحســت ببعض التعب، وجلست معها الخادمة المقربة لها (صافي)، حتى تتبادل الحديث.

وبينما نتحدث دخل أبي، وقد بدا خائر القوى ومتعبًا، لكنه ابتســم ابتســامة دافئة عندما رآني.

قال أبي: ابنتي، كم أنا سعيد لعودتك إلى بيتك! وعانقته بقوة.

هتفــت: أبي، هل أخبــرك تاج مَن قتل الحرس وهاجم قصــر الملكة الأم في مملكة لخبط؟

قال أبي: وا أســفاه! ونحن أيضًا نعرف، وليتني ما كنت أعرف. مِنَ المؤســف أن تعرف أن شــخصًا عاملناه كفرد من أفراد الأســرة الحاكمة ويفعل شــيئًا بهذه البشاعة والغباء.

قلت: إحساسي أن القائد سنان بريء لم يفعل هذا الفعل، كنت أتوق إلى أن أخبره كل شيء بشأن ما أعرف، كيف فشلت فشلًا ذريعًا في منع زوجي أن يفعل هذا الفعل الغبي، لكنني لم أستطِع، فسيغضب مني لا ريب.

قال أبي: حسنًا، أتمنى أن تكوني على حق. ستبدأ محاكمته غدًا.

التفــت لأرى نورهان قادمة نحو الغرفة. لم يغيــر الزمن من ملامحها، فعلى الرغم من حزنها الواضح؛ فقد تحولت من فتاة صغيرة لطيفة إلى امرأة جميلة.

تعانقنا، وقالت لي هي أيضًا إنها سعيدة بعودتي إلى البيت. أخبرتها (صافي) سريعًا عن حديثنا.

التفتت نورهان إليَّ، وقالت: «هالي، لا بد أن ننقذ القائد سنان، لا أصدق أنه هــو الذي ارتكب هذه المصيبة التي ســوف تعصف بجميع الممالك، ولن أصدق

هذا!». ثم جلست على الأريكة، وأخرجت قوقعة من جيبها ومسحتها ووضعت بها دموعها.

ثم قالت: «إنه رجل طيب، وأنا أحب القائد سنان كما لو كان أخي تاج، ويستحيل أن أصدق».

أجهشت نورهان في البكاء مرة أخرى، فوضعت يدي على كتفها وقلت: «نورهان، لقد سُجِن». وداخلي قطعت وعدًا بأن أقول الحقيقة، أفعل كل ما بوسعي كي أعوض عن كل ما ارتكبته من أخطاء وأصلح الموقف الذي جعلت أسرتي تمر به؛ فهم لا يستحقون أن يعانوا بسبب أخطائي مع زوجي.

قلت: «يا نورهان، لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام». ثم ابتسمت لها ابتسامة دافئة، وأمسكت بيدها، وقلت: «أعدك بهذا».

أضاف أبي: «لا بد أن نثق أن نظامنا القانوني سيفعل الشيء الصحيح، حتمًا ستظهر الحقيقة».

وبتلك الكلمات الأخيرة اتجهت أنا وأسرتي إلى غرفة الطعام لتناول الإفطار، حيث ساد الصمت. كنت أعلم في قرارة نفسي أنهم يفكرون في القائد (سنان) وكم كان شجاعًا وأنا أكثرهم مَن يعلم بشجاعة (القائد سنان)، وكم هو نبيل، لا أحد يعرف سنان أكثر مني، كيف يفعل ما يضر المملكة وهو قد رفض حب حياته بسبب حب المملكة؟! وأن يتم هذا التحالف الأحمق وأنا أدفع ثمن الزواج من هذا الأمير الأحمق المغرور.

يدخل الأمير تاج إلى الغرفة. وهو يقول: ساورني القلق من أن تتدهور صحة هالي وأفقدها، فبعدما رجوتها كثيرًا يوم المحاكمة تسامحني على فعلتي مع

سنان، لكنها على مدار شـهر تتجنب الحديث معي ولا أستطيع أن أصالحها، ولم أشـأ أن أخسـرها. لقد قضينا أوقاتًا في خصام وأنا أتعذب بحبها، لا أتخيل حياتي دونها، لكنني أدركت أن لديها مخاوف أعظم.

كنـا مُهدَّديـن في كل لحظة وكل يوم بأن تسـحق جيوش أورمـان المملكة، وتسحق أفراد الأسرة الحاكمة كلها، والجميع في المملكة ينتظر رد الملكة زخبيلة وجيوشـها الجـرارة، كان الجميع مرتعديـن، وحتى أنا كنت خائفًـا من ألا نعود إلى السـلام، وشـعرت بأنني خذلتهم جميعًا؛ فلقد ائتمنني الجميع على حياتهم، والحفاظ على السـلام، وإن لم نسـتطع حمايتهم فستقع المسـئولية كاملة على عاتقي؛ فرغبتي الأنانية في رؤية أرض المملكة موحدة سـتكون السبب في موت كثير من أنواع الجن والمخلوقات البحرية، وفيما سـاورتني المخاوف هدَّأ نظري إلى الرضيـع ابني الأمير الصغير من روعي، وهو ينظر إليه ويبتسـم، وحاول أن يخبرني بأن الخوف سينكسـر، ولسوف نرى سـماء المياه الزرقاء مرة أخرى. كان من الصعب عليَّ أن أصدقه، ولا سـيما كلمـا نظرت إلى وجوه الرجال المضطربة يومًا بعد يوم.

وآخر يـوم بعد أن جاء بضعة من القادة إليَّ لرؤيتـي في غرفتي، وأخبروني أن الجنـود لم تعد ترغب في المُضِي قدمًا في هذه المواجهة الخاسـرة حتى لو تم محاكمتهم وسجنهم، فهم يرغبون في عدم الحرب والعودة إلى السلام؛ لأنهم يرغبون في رؤية أسرهم أحياء، وأن تظل مملكتهم موجودة حتى لو كانت فقيرة، ولكنها تظـل موجودة وهم أحياء، كنت أتفهم هذا، وهـل بمقدوري أن ألومهم على هذا؟!

أخبرتهم بأننا سنذير الهدنة بالفعل فور انعقاد اجتماع الممالك وتحرير القائد سنان. قاطعتني الأميرة: تحرير القائد سنان؟

قلت: نعم، لقد حضرت يوم المحاكمة، وقلت في الشهادة: إن القائد سنان لم يعطِ الأمر لأي جندي بأن يتحرك ضد المملكة العليا.

- نعم، أعلم هذا، لكنك أيضًا لم تقُل إنك الفاعل، لم تستطِع لأن الشجاعة ليست من تكوينك.

- ماذا؟ لِمَ كل هذا يا أميرة البحار الحمراء؟! أنا لم أفعل، ليس لعدم الشجاعة، ولكن حتى أستطيع إصلاح ما فعلت أولًا، ثم سأعترف للجميع، سوف أتركك الآن؛ حتى تستريحي. وقمت بالانصراف.

لم أستطِع النوم حتى أكمل الكتاب بصراحة، لم أقرأ كتابًا مثل هذا، ولم أدخل عوالم أخرى مثلما أدخلني هذا الكتاب، ولا أعتقد أبدًا مهما قرأت بعد هذا الكتاب سوف أصل إلى هذه السعادة في القراءة، وأعتقد سوف يظل كتاب النواقم والواعرين المفضل عندي، ويظل أفضل كاتب هو الدكتور الطوخي صاحب كتاب (الموتى يهمسون)، وكتاب (النواقم والواعرين).

(14)
نهاية الرحلة

استــيقظت فــي الصباح التالي وما زال الغضب من نفســي؛ لماذا لم أســأل (هند) عن حياتهــا؟! لقد كانت فرصة أن أعرف عنها أكثر، كان الغضب يتملكني. غادرت المنزل، وقضيت الصباح أهيم على وجهي كالشبح، كنت بعيدًا للغاية عن كل ما أحبه من أشــياء وأشخاص. جلست على الشاطئ هذا اليوم ساعات طويلة، وكنت أشــعر بالبرد والخوف والجوع. وما من شيء استطاع أن يجعلني أفيق من غفلتي، لا شــيء فيما عدا بعض الرســائل على التليفون، كانت هناك رسائل من (يحيــى) ومن (عايدة)، لكنني كنت مغتمًّا للغاية؛ فلم أســتطِع أن أفتحها، وكان هناك أيضًا رســالة من (عبد الكريم). جعلتني أشعر بشيء من التحسن، ففتحت الرســالة، كانت ممتلئة بالقصص الممتعة حول مدينة الذهب ومهرجان الســحر، وأخبرنــي كــم الحياة هناك ممتعة، مــا دامت مدعوة فقط، وألا تمارس الســحر الأسود، وأخبرني أن خططه للسفر إلى الهند تسري على ما يرام. أخبرني أنه تلقى رسالة من صديق في باكستان يخبره أنه لا بد أن يعود إلى هناك في أسرع وقت ممكن.

قال عبد الكريم في الرسالة: «عادل، أنا مضطر أن أترك القاهرة اليوم. أعرف أنه كان من المفترض أن نلتقي، لم يكن هناك ما يدعوني إلى البقاء في القاهرة الآن. لــم يكن هناك ســوى الألم والنــدم على اقتراف الكثير مــن الأخطاء. وكان هناك الكثير من الأمور التي عليَّ أن أقوم بها قبل أن أعود إلى الوطن، وأولها هو

تنظيف مكان أفعالي وأخطائي، لكن هناك شيء أريد أن تعرفه؛ إن الحاج تهامي مريض جدًّا في منزله».

أغلقت الرسالة، ذهبت بعد ذلك مسرعًا إلى منزل الطوخي، ودخلت غرفتي وأخبرتهم بالرحيل، بدأت في حزم أمتعتي. وبحلول وقت ما بعد الظهر كان قد تبقى لي شيء واحد أفعله؛ ألا وهو التحدث مع هند، استجمعت كل شجاعتي، وفتحت الباب، وكانت تجلس في غرفة المعيشة مع سلوى، نظرت إليهم بابتسامة، وقلت لهم: أشكركم على كل شيء. قالت سلوى: لا شُكْر على واجب يا دكتور، البيت بيتكم الآن، أمنياتنا نشوفكم مرة تانية.

لم تتحدث (هند) معي، وكان هذا هو الدليل على أنها حزينة على رحيلي.

نظرت سلوى إليها، ثم ابتسمت، وقالت: سوف أذهب لمساعدة هالة.

جلست على الكرسي جوارها، وقلت: أريد أن أحكي لكِ شيئًا عني قبل أن أرحل، وبدأت أحكي لها عن قصتي مع زوجتي نجلاء، وبينما نحن نجلس هكذا رن جرس الهاتف، ثم نادى الخادم على هند؛ لكي ترد على الهاتف، تحركت وحملت الحقائب استعدادًا للنزول، وكذلك انتهت هالة من إعداد الحقائب، ونظرت سلوى لنا، وقالت: السيارة في انتظاركم.

قلت: أي سيارة تقصدين؟

قالت: سيارتي، سوف أذهب معكم إلى محطة القطار هنا، قالت هند: وأنا أيضًا، نحن لم ينتهِ الحديث بيننا يا دكتور. قالتها وهي تبتسم.

خرجنا وركبنا العربة وتحركنا، وعندما وصلنا إلى كورنيش البحر، قالت هند: من فضلك يا سلوى أوقفي السيارة؛ أريد أن أجلس على الشاطئ بعض الوقت.

نزلنا جميعًا من السيارة، واتجهنا ناحية البحر، كانت السحب في السماء تنذر بهبوط أمطار، ثم جلسنا ننظر إلى أمواج البحر، وهنا رأيت السيدة العجوز تظهر أمامي، لكن هناك شـيء غريب في هذه المرة، كانت خائفة ومضطربة، وذهبت عنهـا الثقة التي كانت تتحـدث بها كل مرة تظهر بها، والأغرب في هذه المرة أن الجميع قد اسـتطاع أن يشـاهدها ويتحدث معها عندما قالت: لقد حان الوقت. قـال الجميـع: أي وقت؟ ومَن أنتِ؟ هنا علمت أن الجميـع ينظر إليها, إذن هي حقيقة، وليست حلمًا.

اقتربت العجوز مني، ورفعت يديها إلى السـماء، ورفعت الوشاح من عليها، وفجأة تغير جسدها، وتغير صوتها وملامحها، أصبحت العجوز سيدة شابة جميلة الملامح بشـعر أخضر وصوت عزب؛ هنا صرخ الجميع: عفريتة! ثم رفعت يديها؛ لم يسـتطِع بعدها أحد الـكلام، وأخرجت زجاجات صغيرة من السـترة الخضراء التـي ترتديها، وقالت: هذا زيت حيوان أوركا، ضع منه على جسـدك أنت وهي. تقصد هالة. ثم قالت: وأنتِ أيضًا. تقصد سـلوى. وقالـت: الأميرة والمملكة في أشـد الحاجة لكم، وأنا رشـحتكم إلى الملك.. هيا، اسـتعدوا. وهنا رفعت يدها مرة أخرى، وعاد الجميع للكلام. قالت (هند): أنا لا أفهم شـيئًا! أنا لن أتحرك من هنا، ولن أترك أختي، لكن سلوى كانت تفهم ما يحدث، كان أبوها يحكي لها عن ممالـك البحار، كانت هالـة ترتعش من الخوف، ولم تتحدث. أمـا أنا فقلت: أنا مسـتعد، وأخذت زجاجة الزيت ووضعتها على جسدي، وكذلك هالة، وهنا سألتْ سـلوى العجوز: لماذا لا تذهب أختي هند أيضًا معنا؟ قالت العجوز: هي ليست طبيبة، نحن في المملكة نحتاج إلى أطباء، لقد انتشـر مرض غريب عجز حكماء

المملكــة عن علاجه؛ لهذا نريد المســاعدة منكم. قالت ســلوى: لن أذهب دون أختــي، ونظرت إليها، وقلت لها: أنا أيضًا لن أذهــب دون هند. قالت العجوز: لا مانع، سوف أتحمل مسئولية هذا، لكن هيا، لقد حان الوقت، ثم نظرت إلى هالة التي تبكي من الخوف الشــديد، فاقتربــت الجِنِّيَّة من وجهها، قائلةً: لا تخافي، ما دام أنكِ معي ووضعتِ الزيت على جسدك؛ فيمكنكِ الآن التنفس تحت الماء. هيا ننزل البحر، وحاولي التنفس بشكل طبيعي.

وبالفعل استطاع الجميع التنفس جيدًا؛ مما هدَّأ خوفهم من الغرق، ثم عادت الجنية وأمسكت بيدها التي تُشبه ملمس الإسفنج! للغوص أكثر في أعماق البحر، حيث انعدمت الرؤية وسط الظلام الدامس.

فجــأة! ظهر نور من بعيد لمدينة تاريخية غارقة منذ آلاف الســنين، وأطلال قصر قديم، وشــوارع لمدينة مُهدَّمة امتلأت شقوقها بالطحالب والأسماك؛ حيث وقف الجِن على جانبَي الطريق لرؤية البشــر بذهول وغضب؛ لاقتحامهم عالمهم الســري، وخصوصًا النواقم والواعرين، لكنهم لم يســتطيعوا الاعتراض طالما أنها برفقة الحارسة الشخصية للملكة.

انطلقنا جميعًا من موج إلى موج، ومن مكان إلى آخر حتى اختفت الأسماك وأصــوات الأمــواج، ولم يبقَ غيــر الصمت والخوف، ألم أقُل لــك يا صديقي من البداية إن الخوف يتســرب إليك حتى يسيطر على أفكارك وأفعالك، ولا يتركك إلا جثة هامدة، أو حطام إنسان، أو قابعًا في مستشفى أمراض عقلية، وفكرة واحدة وسؤال واحد، هو: هل أنا أحلم؟! هل أنا ميت؟!